الطبعة /١

التشابيه

صفحات مروية عن الأيام الخوالي

داود سلمان الشويلي

رواية

التَّشَابِيهُ

التشابيه

صفحات مروية عن الأيام الخوالي

٢٠١٩

اسم المنجز: التشابيه.
الجنس الادبي: رواية.
اسم المؤلف:داود سلمان الشويلي.
الطبعة الأولى: لسنة ٢٠١٩ .
القياس :١٤× ٢١ سم.
تصميم الغلاف : صارم داود سلمان الشويلي.
خطوط الغلاف: أحمد شاكر.

طباعة وتصميم مطبعة (الحسام) العراق – ذي قار – ناصرية – شارع الحبوبي.

(التنازع على قميص عثمان)

تنويه :

اليك يا من سألتني – أعزك الله – ما كنت ترغب بمعرفته وقراءته من صفحات عن الأيام الخوالي، وما حدث فيها في مدينتي الجميلة المتشحة بالسواد.

لست عاشقاً، ولا محباً، ولا مريداً، ولكن أنا داود سلمان الشويلي، وقد وضعت إسمي على هذه الصفحات لا لشيء سوى لأنني قمت بعملية تنظيم وتدوين أحداث سجلتها ذاكرة المدينة... فكان القسم الأول المعنون (رواية الأحداث - "وقائع ما حدث في المدينة") الذي حاولت صبّه في قالب أدبي فني، وعند الإنتهاء من تدوينه، رأيت أن من يقرأ هذه الصفحات سيقف أكثر من سؤال في طريقه، لِما فيه من ثغرات وفجوات، ليس في نوعية الكتابة، أو في فنيتها، وانما في غياب بعض الأحداث، فدفعني ذلك للبحث وطرح مئات الأسئلة وتقصي الحقيقة في عقر دارها، فكان القسم الثاني وهو(رواية ما حدث بعد ذلك - "تقولات الناس")التي جاءت بمثل الهوامش التي يدوّنها قاريء كتاب ما يعرف عن موضوعه أكثر مما يعرف مؤلفه، لهذا أنبّهك -حفظك الله – وأنبّه من خلالك القاريء اللبيب الى ذلك...لهذا، فالمقولات التالية هي شبابيك يدخل منها الهواء النقي لتغيير هواء الغرفة / الرواية، من مثل :

*(إنّ أبشع استغلال للإنسان هو استغلاله باسم الدين.. لذلك يجب محاربة المشعوذين والدجالين حتى يعلم الجميع أن كرامة الإنسان هي الخط الأحمر الذي دونه الموت.) جيفارا

*(المسألة كلها باختصار أنه عندما تفلس الأحزاب ويفلس السياسيون.. يلعبون على المشاعر الدينية لأنها المدخل السريع لمشاعر الناس وليس عقولهم وهذا الخلط بين الدين والسياسة هو الخطر.) فرج فودة

هذه الرواية ستعيد لنا شهيتنا الى الحقائق الجوهرية للوطنية، والحكومة، والدين، وما بينهما.

ان "التشابيه" هي خيال أكثر منها حقيقة، وهذا لا ينتقص من قيمتها الواقعية لانها بنيت على أحداث حقيقية عاشها الكاتب بكل تفاصيلها بعيداً عما رتبه ونظمه الخيال في مخيلته الناشطة، لان في كتابتها إقتراب منها وليس لنستعيدها مرة أخرى، وهذه مفارقة كبيرة نضع انفسنا فيها.

لقد ثبت أن التاريخ الماضي لي على أقل تقدير ما زال يعيش معي، و"مدافاً" مع دمي،

وكل خلايا جسمي، حيث ان كل خلية تموت يومياً تسلّم أمانتها من هذا التاريخ الى التي تولد حديثاً.

هكذا ولدت هذه الرواية. فبين سطورها وبين خلايا ودم جسمي علاقة وشيجة لا تنفصل.

الصورة واحدة إلّا ان لها تأويلاتها الكثيرة كما في رواية (أوراق المجهول).

شكرا لقراءتكم روايتي هذه.

مرتب ومنظّم الاحداث

رواية الأحداث
"وقائع ما حدث في المدينة"

(١)

امتلأت أذناه بصرير حاد ....

كان الظلام يملأ(الخصّ)القصبي، فيما ذبالة (الفانوس) النفطي، تتراقص بتراخٍ كليل، وهي، بالكاد تدفع بنورها الشحيح الى ما حولها من ظلام صقيعي جمّد عيدان القصب والبواري.

كان الضوء الخابي للفانوس، يصارع كتلة الظلام الهائلة في الركن الجنوبي من (الخص).

امتد نظره الى الركن الشمالي منه، حيث امتلأ بصوت ناشز ينبعث من مكان لم تتوضح معالمه بعد، لكنه، يفرك عينه السليمة براحة كفه، وبأقدام حافية، قاسية الراحتين، وهو يقف في جهة الظلام على أرض خشنة، إنهالت أمامه صورة ذلك الجرم الأسود الممدد عند ذاك الركن المظلم... وكمِن فوجيء بإكتشاف الحقيقة، ضحك في سره، وردد مع نفسه قائلاً:

- انها (الملحه).

وبإشمئزاز، أدار وجهه الى حيث الظلام والسكون الثلجي خارج (الخص)، فبدا له أسود من فتحة الباب.. مد رأسه مثل بوز كلب أجرب يحاول اكتشاف طريقه بعيداً عن عبث الأطفال قبل أن يخرج من مخبئه... فلفحته سياط باردة، أحس بها وكأن موساَ حادة أخذت

تشقق جلدة وجهه... فيما راحت عينه السليمة ، تتشرب كلياً لون الظلام.

رفع رأسه الى قبة السماء، فهاله ما رأى، إذ راحت كتل من الغيوم الداكنة الثقيلة تنتشر في المكان الذي حملقت فيه قبل ساعات مئات العيون تبحث عن هلال عاشوراء في سماء الله الواسعة، وكأنه طفل خبيث يلعب (الختيلة).. وعندما لاح لعينين من تلك العيون التي أضناها البحث، انمحى تاركاً أصوات التهاليل والتكبير تملأ الفضاء.

ارتد (جاسم الأعور) الى الوراء.. أعاد اغلاق الباب جيداً. كان شخير (الملحه) يملأ أذنية بطنين مزعج، فيما ذبالة فانوسها تصارع سخام زجاجه، فكان الليل والظلام، و البرد والشخير.

ردد مع نفسه، كأنه يمدها بشجاعة افتقدتها،ودفء يمنحها قوة وارادة:

- انها تنذر بالكثير.. يالها من سماء حبلى... ستمطر برداً يجمّد الدم في العروق.

حل الرباط القماشي للباسه الداخلي الأبيض الطويل، والذي كان هو الشيء الوحيد الذي إرتسم في سواد الأشياء.. وبيدين خاويتين، سحب طرفيه الى الأعلى، ثم شدّهما جيداً الى بطنه.

مد يده – كالأعمى - في الظلام الذي خلفه في وسط (الخص)، قبالة الباب، وبتكاسل، رفع من الأرض (دشداشته) ذات اللون الداكن... البسها جسمه... ثم لف

رأسه بيشماغه، فبرزت عينان، احداهما ترى الظلام الذي حوله، والثانية نسيت لون الضوء منذ سنين طويلة.. وقبل أن يدفع بجسده عبر الباب، الى حيث كتلة الظلام الهائلة، القى نظرة سريعة الى الكتلة السوداء الممددة على الارض في ركن (الخص)، فالفاها سوداء ساكنة، سوى صوت الشخير الذي – هو الآخر – قد ملته أذناه بعد ان يصل اليهما متكسراً حاد الحواف كقطعة زجاج مهشمة.

رسم ابتسامة انتصار على شفتيه، أوهكذا حاول أن يجعل منها، تمتم مع نفسه، وهو يلف عباءته السوداء المهترئة الحواف، على جسده الخاوي، وكأنه يخاطب تلك الكتلة السوداء:

- لقد تذكّرك الحاج أيتها (الملحه) .. سأفتقدك كثيراً.

ثم استدار وخرج، وهو يسحب صرير الباب من خلفه، فإبتلعه ظلام أزقة القرية الصقيعي الذي أخذ يجلد صفحة وجهه بآلاف السياط الباردة، فيما امتلأ الفضاء بعواء الذئاب ونباح الكلاب الذي يأتيه من بعيد كأنها تدعو أقرانها الى وليمة على فطيسة، فراح يسير محاذياً أسيجة القصب المحيطة (بصرائف) خاوية، ملفوفة بالظلام، مثل لص يحاول الإفلات من مطارديه. فيما كانت السماء من فوق رأسه، سوداء كسخام الفانوس، و كأن النجوم الذهبية والفضية التي تمتلأ بها، قد تساقطت كلها... أو أن يداً عملاقة مسحتها من صفحة السماء، وأخذتها الى جهة غير معلومة، لكن ما فاجأه، هو

الشبح الذي تراءى له على بعد مسافة ثلاثة دور، كتلة سوداء تتحرك عبر الزقاق، محاذية لأسيجة المساكن المبنية من القصب، وقد بانت حركة تلفته الوجلة من خلال الظلام الدامس الذي ملأ الفضاء كلص، اندفع الشبح - الذي كان (جاسم الأعور) يرقبه وقد لسق جسده بالجدار القصبي لـ (خص) (الملحه) – وولجت الكتلة السوداء باب مسكن الشيخ عبد الكريم، إذ انصاع الباب له وكأنه ظلّ مفتوحاً حتى هذه اللحظة. ردد مع نفسه: انه هادي. لكن.. تساءل مع نفسه، ما الذي يفعله في هذه الساعة المبكرة من الفجر، وفي هذا الليل الصقيعي الأسود ؟

إلّا أن برودة الجو، والخوف من أن يراه ذلك الشبح الذي انبثق من ذلك الظلام الدامس الكحلي أنساه كل شيء، فترك مكانه وراح مسرعاً كالمطارد.

حرك رأسه، وهو يعرج على ساقه القصيرة، بهدوء تام، وكأنه لا يريد أن ينبّه الظلام الذي حوله. مد نظر عينه السليمة الى صفحة السماء كي يراها كلها، إذ حجبت عينه الأخرى رؤية القسم الآخر منها.

كل شيء – قد بدا له – أسود، داكناً، ظلاماً، وسخاماً.. حياته كانت – كذلك- سواد بسواد، باردة كبرودة هذه الليلة.. إذ مازال البرد يجمّد وجهه، والريح، آهٍ من الريح - حدث نفسه - ياليتني كنت كالريح.. لقد جمدت... يالها من ريح عاتية.. تدفع به وكأنها أيدي عمالقة تدفع به إلى أمام ...

: يرحمك الله يا أماه.

قال مع نفسه متأسفاً.. ثم تابع قوله وكأنه يحدث أمه الغائبة الحاضرة:

- ألم تجِدي غير هذه (العوراء) لتكحّل عينيّ؟ألم تفكري بعاقبة ذلك؟ سامحك الله.. (عوراء تكحل طفلاً ! ؟) وها هي النتيجة.. سامحك الله يا أماه.

كثيراً ماكان يلوم أمه... لامها وهي في الحياة.. ولامها وهي ميتة.. كان ذلك ديدنه، كلما حاول أن يرى الأشياء كاملة.

ومرة عندما كان جالساً مع الحاج وجماعته، سمع أحدهم يقول: تستطيع الطيور أن ترى مساحة واسعة من الفضاء...ان الله خلق لها عينين حادتين وواسعتي النظر، انها ترى كل الأشياء التي أمامها... ان بصرها أقوى وأشمل في الرؤية من بصر الانسان.

في ذلك الوقت ضحك من نفسه.. هز يده استهزاءً وترك المجلس، وهو يصب جام غضبه على أمه المتوفاة.

لكنه – وكعادته كل مرة – كان يترحم على روح أمه.. تلك المرأة التي تحملت الصعاب في سبيله.. لقد كانت تعمل في بيوت الناس الأغنياء لتطعمه...اذ تركهما والده وهي حامل به.. الى أين ذهب ؟ لا أحد يعرف .. حتى أمه..وعندما سألها وهي في فراش الموت، لم تخبره بشيء، لماذا... لماذا.. لماذا ؟

***

(٢)

نهض الشيخ عبد الكريم من فراشه الدافيء، وبصوت أكله التثاؤب ردد قائلاً:

- بسم الله الرحمـ..... .

فصر سرير (الجريد) من تحت جسده الهزيل، كأنه يكمل له بسملته التي بلعها التثاؤب، وقف في منتصف (الصريفة)، وهو يرتجف من البرد.. قال مع نفسه: هذا موت وليس برد.. ألطف بنا يارب... ألطف بعبادك الصالحين.. انهم أناس فقراء، وعلى قد حالهم.

ثم وكمن كفر بشيء مقدس، قال مستغفراً: أستغفر الله العلي العظيم، ولعنة الله على الشيطان الرجيم.. ان هذا البرد جزء من برودة الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

مد يده الى حيث الفانوس المركون على "دولاب" خشبي صغير، والذي راح ينشر ضوءه الخافت في أرجاء الصريفة. حمله بيده، وأخذ يحرك عتلته الصغيرة باليد الأخرى.. عندها امتلأت الصريفة بضوء أصفر شاحب، تراءى له السرير كتلة لا لون لها سوى لون اللحاف الاخضر اللامع وهو يخفي تحته جسد زوجته أم مهدي، بعد أن تكور باحثاً عن الدفء في ثلاجة صريفتهم القصبية.

ارتدى صايته، ولف رأسه بالياشماغ ثم أحاط جسده بعباءته الصوفية السوداء، وقبل أن يتحرك، استعاذ بالله من شر الشيطان الرجيم، ثم فتح باب الصريفة وخرج الى كتلة الظلام البارد والفانوس بيده ليبدد بالكاد بعضاً من كتلة ذلك الظلام.

هكذا هو في فجر كل يوم، وقبل أن يتحول لون العالم من السواد الى اللون الرمادي.. ثم الفضي.. ثم... كان الشيخ عبد الكريم ينهض من سرير نومه.. يتعوذ من الشيطان، يبسمل مرات.. ويحمد الله كثيراً.. ثم يخرج من صريفة نومه الى (المرحاض) مباشرة، وبعد أن ينتهي من عمله في تغطية الشيطان بغطاء سميك كي لا يظهر له في النهار – كما كان يحلو له التفكه مع جماعته وأولاده بمثل هذا القول – يتوجه الى مكان الوضوء، اذ ينتظره هناك – في أحد أركان حوش البيت(الابريق وتنكة الماء) بعد أن أعدتهما له أم مهدي في الليلة الماضية وهما مغطيان بصينية معدنية قد وضعت عليها طابوقه كامله كي لاتعبث بهما القطط السائبة.

كان نباح الكلاب يملأ أرجاء القريه كلها، فيما يتردد في الأرجاء عواء ذئاب آتٍ من بعيد، والريح تعصف تحت سواد الليل بأرجاء حوش البيت، وقصب السياج يهتز بصفير حاد، كأنه يدفيء نفسه، عازفاً موسيقاه الخاصة.

ادار بصره في ارجاء الحوش، فاصطدم بالظلام.. بالسواد البارد، فيما جلَدَت صفحة وجهه الملتحاة سياط باردة جعلت من شعيرات لحيته البيضاء والسوداء على السواء دبابيس حادة النصال تنغرز بالتوائها صفحة وجهه المتغضنة.

أنهى الشيخ عبد الكريم عملية تغطية الشيطان، ورسم الوضوء، بعدها توجه الى (صريفة الخطّار) المبنية في مدخل البيت، وهو يتسمّع الى صرير سرير الجريد الذي تنام عليه إبنته (هديه) آتياً من صريفة المطبخ ومخزن المؤنة.

أنتشر ضوء الفانوس في صريفة الخطار، فإرتسمت الوان متنوعة، وأشكال هندسية مختلفة وهي تنبسط على أرضيتها. فثمة أكثر من سجادة ملونة قد فرشت على أرضيتها، فيما توزعت مجموعة من الوسائد المختلفة الألوان والحجوم عليها بتكاسل ولا مبالاة، وكأنها هي الأخرى تغط في نوم عميق.

تحرك والفانوس بيده، فتحركت أمامه هالة الضوء الصفراء منتشرة وكأنها تتقدم أمامه الى حيث انزوى سرير(هادي) في الركن القصي من الصريفة هادئاً سوى همس خفيف لصوت تنفسه، فيما كانت هناك صورة ملونة لأحد أبطال كرة القدم وقد شحب لونها، علقت على جدار الصريفة بواسطة بعض الغراء الرخيص.

عاد الى حيث مكانه المعتاد في الجهة الثانية من الصريفة، رفع الفانوس قريباً من وجهه، فمرت هالة الضوء على الجدار الطولي للصريفة، فانكشفت بعض الأطر الخشبية ذات اللون الكالح والمتسخة بمخلفات الذباب.

كانت الصورة الأولى تمثل رسماً للامام علي بن أبي طالب، وهو يجلس على شيء مرتفع، فيما سيفه "ذوالفقار" ملقى على ركبتيه، وثمة أسد رابض قريب من قدميه وهو ساكن – كما أراد له الرسام – وقد وقف خلفه أحد مواليه، وهالة من ضوء قدسي – كما تخيلها الرسام – تحيط برأسه الملفوف بغترة خضراء.

كان الشيخ عبد الكريم قد اقترب بفانوسه من الصورة، وراح يتملّاها وكأنه يراها لأول مرة.. مردداً مع نفسه: السلا م عليك يا أمير المؤمنين وعلى إبنك الحسين سيد الشهداء، وأبنائك وأصحابك وأصحاب ابنك الشهداء.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. قد أوفيتم العهد.. وصدقتم الوعد..ورحمة الله عليكم وبركاته.

بعد أن أنهى سلامه، عاد الى حيث منضدة الكتابة الخشبية الواطئة، وجدها كما تركها ليلة البارحة، حيث انتشر عليها شرشف أخضر من قماش حريري رخيص وقد صُفت عليها بعض الكتب القديمة، وبالقرب منها انتصب الحامل الخشبي لكتاب الله وكأنه يعلن وجوده لمن يدخل الصريفة.

جلس قبالته، وقبل أن يفتح الكتاب الذي اصفرت أوراقه وكلح لون غلافه الجلدي، ردد وبخشوع من بين شفتين باردتين كالثلج، قائلاً:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

رفع كتاب الله الى شفتيه، قبله مرات ثلاث، وكان بين قبلة واخرى يحني رأسه عليه تكريماً وتبجيلاً، و يضع جبهته السمراء على جلده الأخضر المذهب البارد.

أعاده الى مكانه، فتحه على صفحة كان قد علّمها بوضع ريشة طائر سبق أن (شطفها) ثلاث مرات بماءٍ جارٍ، وصلى عليها كي يزيل عنها نجاستها.. ثم صدح صوته قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم.

تعالى صوته الرخيم، مترنماً بآي من القرآن.

***

(٣)

تململ الملّه أبو ناجي في فراشه، فصرت (سبرنكات) السرير الحديدي الأبيض كأسرة مستشفى حكومي، والذي اشتراه له الحاج "فريّح " مع آثاث الجامع، وامتلأت أذناه بصوت مزعج صديء.

تقلب جسمه يميناً وشمالاً... فيما راحت أذناه تمتلأ بصوت آذان الشيخ عبد الكريم آتياً من طرف القرية الشرقي.

ردد مع نفسه جملته المعهودة التي تعوّد أن يرددها في مثل هذا الوقت منذ أن نام ليلته الأولى في هذه القرية قبل أكثر من عام: متى نرتاح من صوتك يا شيخ عبد الكريم... متى ؟

رفع وسادته ووضعها على أذنيه ليبعد عنهما صوت الشيخ عبد الكريم، لكنه كعادته دوماً، اعترف مع نفسه أن لا جدوى من كل ذلك... عليه أن ينهض حالاً وهو يردد قولته المعتادة: لعنة الله عليك ياشيخ عبد الكريم... وعليك كذلك يا "حاج فريّح".. وأنتم الذين تنامون مع نسائكم في بغداد... وكمن يحمل ثقلاً كبيراً، هبط من سريره بتكاسل، والنعاس يكبل جسده كله.

كان جسمه مخدراً بنشوة النوم والأحلام التي تراءت له... ورأسه – كما في الليالي السابقة – يحس به كـ (اسفنجة) كبيرة، يحيط به ألم حاد، جعل أوردة صدغيه تنبض بصوت حاد، وقاس.

ارتدى(صايته)الكالحة اللون، ووضع عمامته البيضاء على رأسه الكبير ، وخرج.

كان أول ما لطم وجهه اللحيم المحمّر، سوط صقيعي، جعله يرتد الى الخلف، ويغلق الباب، وهو يتمتم مع نفسه: لعنة الله على هذه المدينة، هل هذا برد أم جليد.. في الجنوب، وباردة هكذا؟

عاد الى غرفته، وهو يفرك يديه طلباً للدفء. وبسرعة خاطفة إرتدى عباءته (الجوخ) السوداء.. وضعها على رأسه. لفها جيداً على جسده ثم بشفتين باردتين، ردد مع نفسه كلامه المأثور: الله يلعنك يا شيخ عبد الكريم.

فتح باب غرفته مرة أخرى، ودفع بجسده الملفوف بالعباءة السوداء الى الفضاء البارد الأسود لحوش الجامع، حيث توجّه – متمايلاً – الى السلم الذي تعوّد أن يصله حتى لو كان مغمض العينين.

كان كعادته بعد أن يوقظه صوت الشيخ عبد الكريم، يرتقي درجات السلم العشر، ليقف في "صحنه"، ومن هناك يرفع الآذان.

وكعادته، كان قبل أن يرفع صوته بـ (الله أكبر) يغسل فمه – كما يقول مع نفسه – بألفاظ السباب التي

يزجيها للحاج "فرّيح" الذي وعده بشراء جهاز صوت للجامع، ولم يف بوعده - لعنة الله عليه- لحد الآن.

كان يعرف أن لا فائدة من صراخه الأجش وهو يرفع الآذان في سماء هذه القرية، لأن مؤمنيها قد أنهوا صلاتهم قبل أن يرفع هو صوته... لقد سبقه الشيخ عبد الكريم.. وهذا حَسِن..ماذا كان يفعل لو لم يكن الشيخ في هذه القرية.. ؟.. سأل نفسه ثم قال: ها..

انتبه لنفسه.. لقد تأخر كثيراً.. فرفع كفيه المفتوحتين، أحاط بهما أذنيه وراح ينغّم بهما الصوت الأجش للآذان المنطلق من حنجرته.

بعد أن ينتهي من رفع الآذان، يعود مسرعاً، وهو يتثائب، متخطياً درجات السلم المبنية من الطين درجتين، درجتين، وعندما تطأ قدماه أرض حوش الجامع، تمتليء أذنيه الكبيرتين كأذني حمار غبي – على حد وصف الحاج فريّح – بشخير(خبالو).

يقف لثوان متردداً، بين الذهاب الى حيث حوض الوضوء قبالته ليتوضأ ويصلي ركعتي الصبح، وبين العودة الى حيث الدفء في سريره الحديدي الابيض، وكعادته في كل مرة، يقطع خيط التردد الذي يجول في خاطره، ورأسه المخدرة، يعود الى غرفته مهرولاً، ليعيد رؤية احلامه الجميلة مع (الملحه) بعد ان يردد مع نفسه قائلاً: الصباح رباح، لم تهرب الصلاة، سأصلي قصراً.

ثم يسحب الغطاء على جسده، ويغمض عينيه، ويبدأ صوت شخيره يتجاوب مع صدى شخير(خبالو)، وكأن الصوتين قد اتفقا على عزف موسيقاهما الناشزة ليتبدد من حولهما ظلام الليل البارد.

وكما في كل مرة، تستعصي (الملحه) على أحلامه، فيتقلّب في فراشه حتى الصباح دون أن يراها.

كانت الملحة بالنسبة له حلماً كبيراً.. وكان يحسد الحاج "فريّح" عليها.. أما (جاسم الأعور) فقد فعلها مرة واحدة فقط كما أخبره، ولكن – ردد مع نفسه – لا ، ربما يكذب عليّ هذا الأعور الأعرج.

***

(٤)

ثمة غيوم سوداء تملأ سماء القرية قادمة من الشمال، تنذر بيوم شديد المطر.. فيما تصفر في أزقة القرية الخاوية ريحاً صقيعية وهي تمر بين عيدان القصب المبنية منها الصرائف الصغيرة المنتشرة بلا انتظام، حانية على أجساد خاوية بأكسية بالية، ودشاديش كالحة اللون ترتعش مصعوقة بهذا البرد الذي غزا المدينة والقرية على السواء، كما يغزو الجراد مزارع الحنطة عابثاً فيها دون رادٍ له.

كانت القرية معزولة بتل ترابي عالٍ عن المدينة، يحاذيه نهر ماءه أسود برائحة نتنة، تنتشر فيه بعض جثث الحيوانات النافقة.

كان (شطيط) يجمع كل مياه سواقي المدينة ليوصلها الى حيث المضخات التي ترفعه لترميه في نهر الفرات.. فيما التل الترابي، المحاذي له والذي تكوّن جراء حفره، يحمي المدينة من خطر الفيضان الذي يهددها في كل موسم. كان سطح التل، أو ما يدعوه الأهالي بـ (الروف) عباره عن نتوءات ترابية غير منتظمة، تجعل صبية الدور المجاورة له والممتدة

بمحاذاته تبتعد عنه ليلاً خوفاً مما يترآى لها من أشباح سود متحركة.

كان بيت الحاج "فريّح" المبني حديثاً بالطابوق، يقع على الطرف الثاني من (شطيط) داخل حدود المدينة، يفصله عن المدرسة الابتدائية والمستوصف الصحي اللّذين بنيا حديثاً شارع ترابي كثيراً ما يصبح موحلاً صيفاً وشتاءً. يوصل بين المدينة والقرية جسر كونكريتي ضيق ممتد على عرض(شطيط) فيما يمتد في جانبه الثاني – داخل القرية – شارع طويل يكمل شارع المدرسة والمستوصف.

هتف الحاج"فريّح" وهو يدخل الباب الخشبي للغرفة بجاسم الأعور صائحاً:

- ها أعور الشوم.. متى وصلت ؟

كان "جاسم الأعور" قد دخل بيت الحاج بعد أن ترك جسده مقرفصاً على الدكة أمام الباب طوال ساعات الصباح الأولى، قبل أن يستيقظ الحاج من نومه.. كان محتمياً بعباءته الصوفية الممزقة من برد كانون القاتل.

صاح "جاسم الأعور" وهو يرى الحاج:

- صبحك الله بالخير يا عَم..

وكعادته صباح كل يوم يهرول مسرعاً الى كف الحاج، يأخذها بين كفيه ويقبلها.

كفٌ حمراء لحيمة (هذه النعمه!) ردد الأعور مع نفسه، لكن الحاج في هذا اليوم البارد – بالضبط – سحب يده ودفع "جاسم الأعور" جانباً وهو يصيح به:

- رجعت مرة أخرى الى أعمالك المشينة يا أعور الشوم.

وقبل أن يجلس على "المصطبة" الخشبية في الجانب الأمامي للغرفة، يسمع صوت الأعور مبعداً عنه التهمة : والله يا عم...

الا ان الحاج يقاطعه، وهو يرسم ابتسامة خبيثة على شفتيه:

- قل لي أين نمت ليلة البارحة ؟

فوجيء الأعور بالسؤال. لم يقل شيئاً، كان متردداً في الاجابة، بل كان ضائعاً.. وقبل ان يدع الفرصة للحاج بالهجوم عليه مرة أخرى بكلام آخر، راح يغيّر موضوع الحديث، وهو يقول:

- عمي، الجو بارد في الخارج.. ثلج... أرتد معطفك.

كان الحاج "فريّح"، كعادته في شهر محرم، وبالضبط في مناسبة عاشوراء من كل عام، يرتدي بدلته السوداء ذات القطعتين (الصاية والسترة) ويعتمر اليشماغ الأسود والعقال (الشطراوي) الذي يحتفظ به ليضعه على رأسه في المناسبات الاجتماعية والدينية المهمة.

كان سواد بدلته قد بهت، فبانت لمن يراها كالحة اللون من كثرة ارتدائها طيلة عمره الطويل، أما

رائحتها فكانت لا تطاق لوضع كرات النفتالين بين طياتها عند تركها في الصندوق الخشبي الخاص بملابسه.

رد الحاج ضاحكاً: خبيث.. حيوان.

قال مع نفسه: التقيت بالكثير من الناس مثل شاكلتك يا أعور الشؤم انك ابن خنزير، ركب أمك خنزير فحملت بك. وابتسم عن أسنان صفراء، ثم نهض ليرتدي معطفه الصوفي الأسود الذي اشتراه في العام الماضي عند سفره الى بغداد من منطقة (تحت التكية) والذي كان يحلو له أن يخبر أصدقاءه ومعارفه بعنوان المكان،وكيف الوصول اليه في بغداد.

كان الحاج "فريّح"، طويلاً، رفيع القوام متناسق الأعضاء، كأنه جذع شجرة (غرّب) ناعم الجلد، يرتسم تحت أنفه شارب رفيع ناعم، يصبغه بين حين وآخر، ليحيل لون بعض شعيراته التي امتد اليها الشيب الى لون أسود داكن، فيقل عمره لمن يراه ودون أن يعرفه عشر سنين كاملة على الأقل. فيما كانت صفحة وجهه صقيلة دائماً، اذ كان عندما يجلس على كرسي الحلاق يطلب منه أن (يحف) له صفحة خديه.

خرج "جاسم الأعور" مسرعاً الى حيث تقف سيارة (الفورد) السوداء، لينظف زجاجها ومعدنها الصديء، مثل كل يوم. لكنه، وقبل أن يصل الى باب الدار، سمع صراخ الحاج، وهو يستدعيه.. اختض جسده، وأحس بالدم قد تجمّد في عروقه، فيما تصلبت قدمه السليمة

عند عتبة الباب: ياستار استر... ردد مع نفسه، ثم عاد مسرعاً وهو يعرج، والبرد يخض جسده رغم العباءة الصوفية، والثوب السميك، واليشماغ الملفوف على رأسه. جاءه صوت الحاج: هل أخبرت البغل ؟

نظر الأعور اليه باندهاش وبلَه تامّين.

كان الحاج قد انتبه الى ما اعتوره، ليس من وقفته المائلة الى جانب ساقه العرجاء، بل من رفرفة جفنيْ عينه السليمة، فبادره قائلاً:

- اقصد "الملّه" أبو ناجي.

عندها استراحت تلك العين.. وهمدت رفرفة رمشيها، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة، وقبل أن ينبس بكلمة، حمد الله في سره لأن الحاج قد نسيَ الموضوع الاول:

- نعم عمي. رد عليه بصوت مرتجف.

- والشباب ؟ سأله مرة اخرى.

- نعم عمي... أجابه والخوف مازال متمدداً في نفسه وكيانه من اطالة الحديث هكذا.. وفي محاولة منه لأنهائه، قال الاعرج:

- نعم عمي ستجد الجميع في الجامع.

وقبل أن يفلت الأعرج خارجاً من الغرفة، سأله الحاج "فريّح":

- وقحبتك ؟ !

تسمر(جاسم الأعور) في مكانه كمن شكتّه شوكة في راحة قدمه السليمة، قال مع نفسه: هذا ماكنت أخاف منه.

لم ينبس بكلمة كمن لم يسمع شيئاً محاولاً الافلات من محاصرة الحاج له.. (خبيث هذا الحاج) ردد مع نفسه.. (خبيث بكياسته.. خبيث بتعقله الزائد عن اللزوم أمام الناس، وخبيث في صلاته وهو يؤديها خلف صاحبه الملّه أبو ناجي – البغل – وخبيث هذا البغل الذي جاء الى القرية من مكان لا يعرفه، برأسه الكبيرة كرأس بغل غبي، وبلون بشرته الحمراء، وعمامته البيضاء الكبيرة.. ربي خلصني من هذا الحصار) ردد مع نفسه، ثم أردف قوله الصامت: نغل ابن نغل. هل حملت بك أمك بعد أن جامعها الكلب الأجرب؟

- هل أخبرت الملحة بالمجيء الى البيت؟

سأله الحاج مرة أخرى وهو يعرف انه قد أخبرها.

أجابه الأعرج بإنكسار:

- نعم عمي.. وسوف تحضر معي هذا المساء.

- لاداعي لمجيئك معها.. هي تعرف طريقها.. أليس كذلك ؟

- نعم عمي.. هي تعرف طريقها.

(جرجرتها بيديّ هاتين كمن يسحب نعجة الى دكان القصاب) ردد مع نفسه بإنكسار وآلية ممجوجة (أرشدتها أنا اليه – تابع مع نفسه – أصبحت قواداً منذ

أول مرة جئت بها الى هذا البيت... بل منذ أن جئت بها الى المدينة).

- أعرج...

أخرجه صراخ الحاج من لوم نفسه.

- أغرب عن وجهي.

***

(٥)

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قالها الشيخ عبد الكريم متأففاً، وعاد أدراجه مرة أخرى الى باب داره بعد أن ابتعد عنه خطوات قليلة.

كانت(الملحه)، الساكنة في الزقاق نفسه الذي بنى فيه الشيخ بيته من القصب والبواري قبل أكثر من عامين، هي أول من التقت عيناه وجهها (الأملح).. الذي غلب عليه سواد فوطتها الغبراء.

كانت في الثلاثين من عمرها.. سمراء، طويلة، مضمومة الجسد، يلوح على صفحة وجهها الأسمر لون مغبر، مائل للسمار المحبب. لايعرف لها أسم سوى اللقب الذي أطلقه عليها الحاج"فريّح" عندما رآها أول مرة مع "جاسم الأعور"، اذ لقبها بـ (الملحه)، فصعد الشبق برعشته الجميلة الى "يافوخه" الاصلع.

: انه الشيطان بعينه.. أعوذ بالله منها ومنه.

ردد الشيخ ذلك مع نفسه، وتأفف كثيراً، وأشاح بوجهه عنها، وهو يتذكر محاولاته العديدة مع الحاج "فريّح" لإقناعه على ترحيل هذه المرأة الملعونة التي جاء بها "جاسم الأعور" قبل أكثر من ستة أشهر، إلّا أن محاولاته باءت بالفشل، رغم ماقدمه مع ساكني

الزقاق من(عرائض) الى أعضاء المجلس البلدي، والتي طلب فيها حماية نساء القرية وبناتها الشابات من أخلاق هذه المرأة الغريبة التي لايعرف لها أصلاً ولا فصل.. وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح. وقتها لم يبق أمامه وأمام أهل القرية سوى المتصرف، ومن خلال معارفه، وصل الشيخ عبد الكريم اليه.. شرح له قضية هذه المرأة، فأرسل أحد موظفيه للوقوف على صدق دعواه ورفع تقريره بذلك.

:(سبحان الله) ردد الشيخ عبد الكريم مع نفسه وتابع (إنها بلوى..بلوى سوداء..). وهكذا ردد سكان الزقاق بعد أن تجمعوا في صريفة الخطار في داره.

قال لهم : بلوة سوداء ... إنها امتحان لنسائنا وبناتنا.

كان لسان الشيخ يلهج بآيات المعوذات بعد أن سمع بما في تقرير الموظف من الفاظ الشرف والعفة التي وصفت بها(الملحه). وبعد أيام شاهد سكان الزقاق أفندياً غير"جاسم الأعور" يتردد على(صريفة) الملحة بين فترة وأخرى. عند ذاك أخذت الوجوه في هذا الزقاق الضيق تستدير مشمئزة من مرآها. والألسن تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم الذي تصور بصورتها الفاسقة، وقتها قال الحاج متفكهاً بعد أن سمع عن التقرير لبعض خلصائه.

: ماذا يريد منها هذا الشيخ.. لولاها لأصبحت ابنته أو ابنة أي منا مثلها. لتأخذ دورها في مثل هذه الاعمال.. إنها نعمة- أكد الحاج لخلصائه - نعم، نعمة ربانية..

جاء بها الله سبحانه وتعالى الى قريتنا.. في المدينة (فطيّم).. و(الملحه) في القرية، اليست هذه نعمة كبيرة ؟ ! أستغفر الله العظيم، أناس لا يستحون.. لا عمل لهم سوى النبش بأعراض الناس.

كانت(الملحه) قد خرجت حاملة (زنبيلها) المصنوع من خوص جريد النخيل حيث سوق القرية.. لم تترك احداً في البيت سوى أسمالاً بالية، وفراشاً قديماً، واغطية متسخة.. ولم تحمل في جيوبها نقوداً.. اذ أن جاسم ينتظرها في السوق، كما اتفقا ليلة البارحة.

قبل أكثر من ستة أشهر، دخل "جاسم الأعور" محل الحاج"فريّح" للعقار بعد عودته من بغداد لقضاء بعض أعمال الحاج هناك.. جاء بها الى المحل وتركها واقفة ليس بعيداً عن بوابة المحل الزجاجية، وعندما شاهدها الحاج، كان وجهها تملأه الاصباغ، كأي قروية ليلة زفافها.. جميلة كفتاة عذراء.

: من أين أتيت بها ؟

سأله الحاج بإبتسامة خبيثة رسمها على شفتيه.

: من السيارة.

أجابه الأعور بخبث مبطن، وهو ينظر بعينه السليمة الى وجه الحاج ليقرأ على صفحته رد فعله تجاه هذه الهدية.

: هل هي من المدينة ؟

سأل الحاج "فريّح" بعصبية.

: تقول انها من بغداد.. ولا أحد لها هنا.

مد الحاج فريّح يده الى "جاسم الأعور" وهي تحمل مفتاحاً كبيراً، وقال ببرودة تامة :

: خذها الى البيت الصغير..

سكتت كل حركة فيه.. كانت عينه السليمة هي الوحيدة التي إختلج فيها شيئاً ما.. ربما رموش عينه.. أو أن شيئاً ما دخل فيها، ربما دخان سيكارة الحاج.. ربما.. فأخذ ينبش في جوانبها، ألّا انه لم يعرف بالضبط ماهو.

: هل شلِلت ؟

أخرجه صياح الحاج من اختلاجة عينه.

كانت اليد مازالت ممدودة في المسافة التي تفصل بينه وبين منضدة مكتب الحاج عندما مد يده لأستلام المفتاح.

: اطلب منها أن تغتسل وتعد الطعام، ولاداعي لبقائك معها.. انك تعب من السفر.. اذهب لترتاح.

قال كل ذلك بأمر جازم لينهي قضية علاقة(الملحه) "بجاسم الأعور" منذ لحظة وصولها.

في اليوم الثاني، بعد أن انمحت كل أصباغ وجهها الملونة تحت لهاث الحاج "فريحّ" وبخار زفيره المشبع برائحة العرق المستكي.. خرجت من البيت الصغير الى بيت القصاب الذي جرها اليه "الأعور" بأسم جديد غير إسمها المعروف.

***

(٦)

: ها.. وهل الحاج سيأتي معهم ؟

تسأءل "خبالو" وهو ينتهي من كنس أرضية غرفة المسجد بمكنسة الخوص.. فيما كان الملّه "أبو ناجي" يضع سيكارة (الجمهورية) بين شفتيه، منشغل الفكر، لما رآه صبيحة هذا اليوم... لقد وصلوا الى عقر داره مرة أخرى...اذ هاله ما رآه على جدار المسجد المبنية من الطابوق..أربعة أوراق بيضاء مكتوبة بخط اليد، ومستنسخة بالكاربون، وهي تدعو الناس الى الثورة على حكم عارف... أسرع الى رفعها على الرغم من أن المادة المستخدمة في لسقها كانت قد تيبست، فتمزقت الأوراق كلها بين يديه عند رفعها... وهذا ما يريده بالضبط.

: سيكون اجتماعاً عظيماً.

قال ذلك "خبالو"، وأكمل مع نفسه: بالنسبة لي على الأقل...ثم حمل (تنكة) الماء وراح يرشه بكفه ذات العروق الناتئة على الأرض الترابية للغرفة. فيما امتلأ الفضاء داخل الغرفة بذرات التراب الخانقة.

: هل تكلمت معه ؟

سأل "خبالو".. فيما راح الملّه يشعل سيكارة ثانية، يسحب منها نفساً عميقاً ليبعث الدخان من منخري أنفه الأحمر الكبير بتلذذ وهو يقف في منتصف الغرفة مصالباً ذراعيه على صدره طالباً الدفء لجسده وهو يلف العباءة عليه.

: أكلم من ؟ قال الملّه بغير انتباه.

صرخ"خبالو" عالياً بعد أن ترك تنكة الماء تسقط من يده لينساب الماء على أرضية الغرفة مكوناً بركة مائية صغيرة :

: آخ راسي.

ثم إنهد على الأرض تاركاً جسده في ماء البركة.. فيما راحت يداه تعمل في شعر رأسه جذباً.

كانت هستيرية "خبالو" حالة قد تعودها الملّه منه، فلم يندهش لذلك، فصرخ به :

: ماذا فعلت يا "مطي" ؟ انهض وامسح الأرض.

صاح "خبالو" وهو يحث الوحل من البركة ويمسح به شعر رأسه :

: لماذا.. لماذا ؟

صاح به الملّه غاضباً وهو يرفعه من كتفيه :

: انهض قبل أن يأتي الحاج وجماعته، انهض..

صرخ "خبالو" بوجه الملّه قائلاً :

: الفلوس.. الفلوس يا ملّه.. يا ...

كان يريد أن يقول له يا(غبي)، إلّا انه عدل عن ذلك، وبدأ بتجفيف بركة الماء.

كان الملّه ينتظر بفارغ الصبر تجمع الشباب هذا اليوم، انها فرصته الوحيدة التي كان ينتظرها بعد أن ضاعت منه فرحة معرفة موزعي المنشورات، وعليه أن يستغلها.. سوف لن يراهم مجتمعين هكذا مرة اخرى، و لن يستمع لأحاديثهم.. انها فرصته الوحيدة – هكذا راح يكلم نفسه – سيتعرف عليهم.. سيجعل من نفسه صديقاً لهم.. وسيقدم لهم يد المساعدة، أو على الأقل أن يصاحب أحدهم.. وعند ذاك سيعرف كيف يستفيد منهم.

في ذلك اليوم لبس الملّه ملابسه النظيفة التي سبق أن أرسلها يوم أمس بيد"خبالو"الى محل(الأوتجي)في المدينة،واشترى علبة سكائر(الجمهورية) ليوزعها على الحاضرين.. يجب – هكذا أكد مع نفسه – أن يستغل هذه الفرصة.. يجب أن يقدم شيئاً للمسؤولين هناك.

هكذا فكر الملّه.. فيما أنهى "خبالو" تجفيف الماء وفرش أرضية الغرفة بالحصران والسجاد.. ثم أعاد المنضدة الخشبية الصغيرة الى مكانها عند أحد أركان الغرفة، بعد أن ملأ حوضها بمجموعة من (التُرَب) الصغيرة.

انتقل الملّه الى قرب الباب وهو يراقب عمل "خبالو" فيما كل ذهنه منصرفاً الى ما ستجري من أحاديث بينه وبين الشباب، وكيفية استغلال كل ذلك لصالحه (يجب أن أعرف مصدر هذه المناشير ومن

يوزعها). وكان دخان سكارته يتطاير ويختفي أمام وجهه، والبرد يقرص جلده على الرغم من عباءته الصوفية. وفي لحظة من لحظات التفكير بما سيكون عليه الاجتماع، انقلبت حمرة وجهه الى صفرة ليمونية، اذ راح تفكيره يطوف خارج غرفة الجامع، فردد مع نفسه:غبي..غبي..الى متى سيطول بك البقاء في هذه الغرفة النتنة وفي هذه القرية القذرة، وأنت تتحمل سفالة هذا الحاج وصوت الشيخ عبد الكريم وهو يؤذن في الفجر.. الى متى.. الى متى ؟!

أخرجه صوت "خبالو" وهو يسأله قائلاً:

: - ها ملّه ؟

: - ماذا ؟ ! قالها دون أن يعرف ما يريد قوله. إلّا انه، وهو ينظر الى أرضية الغرفة، صرخ "بخبالو" :

: اذهب الى عملك.

: - والحاج ؟ سأل "خبالو".

رد عليه الملّه بغضب : ماذا به ؟

: - الفلوس.. قال "خبالو" وهو يمسح كفيه المتسختين بثوبه الممزق.

: - أغرب عن وجهي الآن .. أخرج .. هيا..

حرَن "خبالو" أمام الباب، كحمار عاند صاحبه، ثم استدار نحو الملّه مستفسراً :

: - ملّه..

: - نعم.. صرخ به الملّه.

وبإستهزاء، وقد بدت أسنان"خبالو"الصفراء من بين تكشيرة شفتيه، صاح بالملّه:

: السكارة ملّه.

لم يفهم ما قاله "خبالو"، فصاح به ضاحكاً :

: - السكارة منطفئة يا ملّه.

عندها سحب الملّه "خبالو" من يده وأوصله الى باب المسجد، ثم وضع كفيه خلف ظهره ودفعه الى خارجه، وأغلق الباب دونه.

منذ أكثر من سنة، وهو يحاول دون جدوى.. هل هو الغباء كما قال له رئيسه في بغداد؟ أم انه كان بغلاً، كما دعاه الحاج؟ إلّا انه ردد مع نفسه:

- ما ذنبي أنا اذا كانت "الجُبّة" والعمامة لا تليقان بي، وربما أنا لا أليق بهما.. ها... ما ذنبي أنا ؟ لقد أخبرتهم في بغداد ان ملابسي هي السبب.. قلت لهم انها تبعد الشباب عن مجالستي والحديث معي.. وقلت لهم كذلك ان الناس يحترمون الشيخ عبد الكريم أكثر مني ومن الشيخ "فريّح". وقلت لهم ارسلوا أحداً غيري لينفذ هذا الواجب.. قلت وقلت، إلّا ان كل ما قلته ذهب أدراج الرياح. هل أنا الغبي، أم هم الاغبياء... ها ؟ وعندما طلبت منهم أن أغير ملابسي، رفضوا، قالوا ستفسد كل شيء، وقالوا هذا هو واجبك وهذا هو زيك..وسيأتيك شهر عاشوراء وستحتاج لهما كثيراً.

ذهبت كل محاولاتي أدراج الرياح.. دون جدوى.. لم أصل معهم الى نتيجة، فعدت الى هذه القرية اللعينة

وشيخها الملعون وحاجّها الفاسق كما ذهبت.. ظلت الأوامر كما هي.. منذ عام وحتى هذه الساعة.. وفي كل يوم تمتليء الجدران بالشعارات المعادية للحكومة.. ولا أحد في هذه المدينة يحرك ساكناً. وعندما أخبر من في بغداد يقولون هذا ليس واجبك.. انه واجب الأمن في المدينة.. هنيئاً لكم بالأمن في المدينة.. ها .. ها.. ها.

لم ينتبه لصوت ضحكته العالي.. فتابع حديثه مع نفسه: حتى العجين والدبس قد استعملوه في لسق الشعارات على الحيطان والأبواب الخشبية.. يا لهم من شياطين هؤلاء الشباب.. ولكن، الى متى سأبقى هنا بعيداً عن مباهج بغداد ؟ ها الى متى ؟

***

(٧)

عندما عاد الشيخ عبد الكريم واجتاز عتبة الباب الخشبي الذي ينتصب بين دعامتين مبنيتين من الطابوق الأصفر، أعاد (طلّاقة) الباب بعصبية وهو يردد مع نفسه كلمات غير مفهومة، فيما كان وجه هادي أول من قابله في حوش البيت.

: أستغفر الله العظيم من كل شر عظيم .. وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

اندهش هادي من عودة والده المفاجئة، ودمدمته غير المفهومة مع نفسه. بينما اندهش الشيخ في الوقت نفسه من رؤية هادي وهو يهمّ بالخروج في مثل هذا الوقت المبكر من صباح يوم جمعة.

: الى أين ؟

سأل الشيخ عبد الكريم ابنه هادي، وما زال وجهه معبساً.

: الى المسجد... رد هادي بهدوئه المعهود، ثم أردف قائلاً: أقصد سأمر على بعض الأصدقاء ومن ثم نذهب جميعاً الى المسجد.

تسمّر الشيخ في مكانه وهو ينظر الى ولده باندهاش تام. ان ما سمعه قد فاجأه، ذلك لأنه يعرف أن ابنه لم

يصلٍّ يوماً في مسجد القرية الذي بناه الحاج"فريّح" وجاء بهذا الفاسق ليكون مؤذناً فيه، ولا يعرف الناس عنه شيئاً.

: - الى المسجد.. سأل بإستغراب، وكأنه صعق مما سمع.

: نعم.

سأل الشيخ ابنه وهو يضع مسبحته السوداء في جيب "صايته":

: - وماذا تفعل هناك ؟

و دون أن يسمع الرد من ابنه، توجه الى حيث باب(صريفة الخطّار). فيما تبعه هادي بأدب الى داخل الصريفة.

لم يرد هادي على سؤال والده، وانما أسرع هو ليسأل والده عن سبب عودته دون الذهاب الى عمله، بعد أن أحس ان الحديث معه على هذه الشاكلة سينسيه ذلك.

: لماذا عدت سريعاً يا أبي.. هل نسيت شيئاً ؟

ابتسم الشيخ بوجه ولده. فيما ترك جسده يتكوم على واحدة من الوسائد الصوفية.. ثم تمتم بكلمات لم يسمعها هادي، بعدها قال:

: قبل أن أنسى، أما زلت مصراً على الاشتراك في (التشابيه) ؟

رد هادي على والده وهو يقف عند مدخل الصريفة:

: نعم.. وقد وافقت أنت على ذلك.

: نعم لقد وافقت، ولكن بشرط.

سأل هادي والده بتودد وهو يعرف ذلك الشرط:

: لماذا يا والدي تحرمني شرف أداء ذلك الدور.. ها؟

رد الشيخ عليه قائلاً:

: لا يمكن لمثلك أن يقوم بهذا الدور، ولا لأي شخص آخر.

قال هادي :

: سيعطونه الى شخص آخر أنا أتقى منه.. أو على الأقل أنا أفضل منه.

: سننظر في ذلك فيما بعد، رغم أني غير مقتنع بما تقومون به.

وهو يداعب مسبحته السوداء التي أخرجها من جيبه ثانية، والابتسامة مرتسمة على شفتيه اليابستين، تابع قوله:

: هل ستذهب للاجتماع مع هذا الحاج... المؤمن "كلش"، والمكوي "كصته"؟

وارتفع صوته ضاحكاً.

رد هادي بهدوء:

: الحاج ليس سوى وسيلة نستغلها، أما ايمانه أو عدم ايمانه....

قاطعه والده الشيخ بعد أن فاجأه قول ابنه:

: ماذا تقصد بنستغله...ها، من أنتم الذين ستستغلون الحاج في هذا العمل؟

فوجيء هادي بانتباهة والده الى ما قاله، وبسرعة أجاب:

: أقصد أنا وشباب القرية.. أصدقائي.

: هادي أتظنني جاهلاً.. ها ؟!

: صدقني أنا وأصدقائي.

: اذا كانت جماعتكم يعوّلون على التشابيه فقل لهم أن هذا أكبر خطأ يرتكبونه.

: أبي ليس لجماعتنا دور في ذلك، صدقني.

: ليكن الله معكم.. ولكن انتبهوا لأنفسكم.

سأله هادي :

: ألست موافقاً على ذلك الاجتماع ؟

: - كلا.. رد الشيخ، ثم تابع قوله:

: اذهب.. إلا أنك ستعود بغير ما ذهبت به.

لم يفهم هادي ما قصده والده بكلماته الاخيرة، إلّا انه، ولكي يتخلص من هذا الحصار الذي ضربه حوله الشيخ عبد الكريم والذي حتماً- كما قال مع نفسه- يعرف كل شيء عن جماعته، اجتاز بسرعة عتبة باب الصريفة، فسمع صوت والده يأتيه من داخل الصريفة قائلاً:

: انتظر.. سأذهب الى المكتبة.. وعندما تنتهي من الاجتماع.. الحق بي.

وقف هادي قرب باب الدار، منتظراً والده حتى خرج أولاً من الدار. إلّا ان الشيخ تذكر أمراً آخراً، لهذا سارع بسؤال ابنه:

: هادي، لقد وجدت باب الدار غير مقفل وقد قفلته ليلة البارحة بعد مجيئي.

إلا أن هادي أدار وجهه الى ناحية الباب كي لا يدع والده يرى ما انتابه لحظة سؤاله ذاك من خوف وقلق على مهمته ليلة البارحة. ودون أن ينظر الى والده، أجاب:

: لا أعرف، ربما نسيت قفله أنت.

رد الشيخ:

: ربما...

هادي هو الابن الثاني للشيخ عبد الكريم.. طالب في الدراسة الاعدادية.. جاء به والده مع والدته أم مهدي وأخته (هدية) قبل سنتين الى هذه القرية من إحدى قصبات مدينة الناصرية، بعد أن هرب إبنهم الكبير مهدي من مطاردة رجال الأمن له وسكن بيت عمه. وبعد أن جيء بجسد عمهم الشاب عبد الحليم ملفوفاً بملابسه المدماة بلا روح.. أما عمهم الزاير عبد الجليل، فما زال يسكن احدى القرى القريبة من الهور.

ترك والده يخرج قبله، وانتظر دقائق ليغيب عنه، اذ ما زالت كلمات والده تصطخب في فكره، وهي تحز في خلايا جسده كمشرط جراح غير ماهر، فتاه بها تفكيره في شعاب لا نهاية لها، والريح الباردة تلسع عظام وجهه الاسمر.. تساءل: هل يعرف والدي اشياءً لم أعرف بها ؟ إلّا أنه ترك الاجابة لحين انتهاء الاجتماع .

سحب هادي السلسلة الحديدية للباب، فسمع اصطفاقه وهو يغلق.

زرّر معطفه الأسود جيداً بعد أن أحس بعظامه الناعمة تتنشق برودة هواء كانون الثاني الصقيعية.. طوّف بناظريه بعد أن جعل الباب خلف ظهره في طول الزقاق الذي يقع دارهم على أحد جانبيه، فأصطدم بصره بذلك الشق الأسود الذي يقسم الزقاق طولياً الى نصفين، فلاحت لعينيه طبقة متجمدة على صفحته السوداء، فيما الرائحة ما زالت تزكم انفه. تساءل مع نفسه وهو يزرع نظره في أحد الصبية الذي راح يحاول تكسير طبقة الجليد بقضيب حديدي: كم من السنين بعد، كي تزول مثل هذه السواقي النتنة؟ وعندما كان الجواب جاهزاً في ذهنه، لوى شفتيه امتعاضاً ويأساً، وحرك قدميه الباردتين ميمماً صوب الطرف الثاني من الزقاق، الى حيث يفضي به الى الشارع الرئيس للقرية والذي يقع فيه الجامع.

على جانبي الزقاق، تصطف مجموعة من الصرائف المسورة بأسيجة مجدولة من القصب.. أكثر من عشرين داراً مبنية من القصب والبواري، وكأن الطابوق قد حرم على ساكنيها.

فعلى يمين دارهم، تقع دارأسطه كاظم البناء: (بنّه ابن بنّه) وبيته ليس فيه طابوقة واحدة... ردد مع نفسه تلك النكتة التي أشيعت عن دار الأسطة.. وعن يساره يبدأ خط البيوت ممتداً حتى نهاية الزقاق... دار أبو

حسين المكاري، ثم دار جميل العامل، وبعدها دار جواد الحلاق.. ثم .. لايعرف اسم صاحب البيت.

أما الخط الممتد في الجهة المقابلة، فيبدأ بدار.. أه .. اللعنة عليها وعلى أهلها.. انها أول الدور.. (الملحة).

عندما نطق بإسمها، أحس بخيط من الحرارة يسري في خلايا جسده، اسم على مسمى - قال مع نفسه وهو يتنهد - ياله من جسم لدن.. استغفر الله.. وركان ممتلآن.. ونهدان نافران ملأى صدرها بتحد كبير.. و..

: هادي، ماذا بك ؟

كانت(الملحه) أمامه. سمراء وقد تلطخ وجهها بكل ألوان وجوه نساء المدينة دون انتظام.

جمد في مكان.. دار برأسه الى كل الاتجاهات.. كان الخوف هو ماكبله تماماً.. فطوف ببصره عن يمينه وعن شماله.. التفت وهو مصعوق الى الخلف.. لم يكن ثمه شخص في الزقاق سوى ناجي ابن حسن بأعوامه السبعة جالساً أمام باب بيتهم مكوراً ساقيه بين ساعديه، بعد أن أتعبه تكسير الجليد في الساقية النتنة.

رغم برودة الجو صعد خيط من الحرارة في جسمه من بين فخذيه حتى تكور في بطنه:

: اهلاً..

قالها وكأنه يزيح عن كاهله ثقلاً كبيراً.

: كيف الحال؟

سألته بتحد، وهي تسد الطريق أمامه بتعمد ظاهر، بعد أن أحسّت برغبته في التخلص منها.

: عن اذنِك.

كان في صدره ثقل قد أحس به يجثم على قلبه، ثم تابع قوله بتلعثم بيّن:

: هناك اجتماع في المسجد، ولا أريد أن أتأخر عنهم.

كان الزنبيل في يدها.. مليء بالخضروات واللحم وأكياس ورقية متنوعة، فيما عينيها يختلج بياضهما بحمرة متبقية من سهر الليلة السابقة.

: - أعرف ذلك.

أجابته، وهي تفرش على شفتيها الملطختان بحمرة قانية ابتسامة عريضة كشفت عن صف من الأسنان التي صبغتها بقايا دخان السكاير... سقط نظره على مثلث فتحة ثوبها العلوية، دمدم مع نفسه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... ثم غاص بعينيه في دكنة زاوية ذلك المثلث الحادة... نهدان نابضان الى أمام، حاول أن يرفع يده ليجوس بأصابعه في ذلك المثلث، كما فكر مع نفسه، وقد اجتاحت جسده كله لفحة ساخنة حملها دمه وأحس بها تتجمع في وسط بطنه، فيما راحت معدته تتقلص وتنبسط بسرعة، وألم حاد يدور فيها، فيما فمه قد امتلأ بسائل لزج... إلّا أن ضحكتها العالية وصوتها الانثوي الأبح أخرجه من كل ذلك:

: هادي.. هادي.

***

(٨)

: جاء الخير..

همس سليم ابن زاير كاظم البناء متهكماً، بهاتين الكلمتين في أذن هادي الذي يجلس على يمينه في غرفة الجامع، وهو يحاول اخماد جذوة أبتسامة تريد الإفلات من بين شفتيه.

رد عليه هادي قائلاً : كما تقول.

كان صوت منبّه سيارة (الفورد) السوداء يتعالى في الشارع أمام باب المسجد صاخباً، ينبيء عن وصول الحاج"فريّح" وجماعته الذين يرافقوه دائماً وهم يجلسون في السيارة، فضاعت في أذن هادي كلمات زميله جمال الذي كان يجلس الى يساره.

كان يرافق الحاج"فريّح"، كعادته عند ما يضطر لإستخدام سيارته، ثلاثة من الرجال أحدهم"جاسم الأعور"، الخادم المطيع، كما يحلو لبعض شباب القرية أن يسميه. أما الإثنان الآخران، فقد كان الحاج يبدّلهم مضطراً، اذ أن الصدفة وحدها هي التي تقف وراء الإختيار العشوائي لهم.. ويعتمد ذلك على من يكون جالساً في مكتبه وقتذاك، أو من يصادفه من معارفه

وأصدقائه... ولم تكن حاجته لهم كحماية، وانما ليساعدوه في دفع السيارة عند عطلها، وما أكثر أعطال سيارة الحاج، حتى أصبحت مثلاً يضرب به في ذلك.

انتبه"خبالو" الى صف الجالسين أمامه، فها هو الملّه أبو ناجي يتصدر المجلس قريباً من المنبر الخشبي الأسود، وقد ترك مكان الحاج شاغراً تحت لوحة مؤطرة لآية الكرسي معلقة على الجدار المقابل لباب الغرفة... فيما جلس الي جهة الجدار الأيمن المحادد للشارع العام كل من (شرجي قامة) و (حميد الطويل)... أما في الجانب المقابل لهما فقد جلس كل من جمال، وهادي، وسليم.

سأل"خبالو"نفسه تلك اللحظة وهو يُنهِض جسده من الأرض المحاذية لباب الغرفة: أيهما الأسرع في النهوض، هو أو الملّه ؟ وعندما لم يجد الإجابة عن ذلك السؤال، وجد أن الجميع قد نهضوا، فيما الحاج "فريّح" يمد يده ليسلم على هادي، اذ لحظتها رآى يده في يد هادي وهو يقول:

: كيف حال الشيخ الوالد... منذ مدة وأنا لم أره ؟

رد عليه هادي بهدوء وأدب:

: الحمد لله.. انه بصحة جيدة.

تساءل"خبالو" مع نفسه بعد أن اجتازه الحاج ولم يسلم عليه: هل نسيّ أن يسلم عليّ أم انه تركني متعمداً ؟ ولأنه لايريد أن يجيب على هذا السؤال بنفسه، ثَبَّت نظره على "جاسم الأعور"، الذي كان يقف مباشرة

خلف الحاج، ومع نفسه قال: يا له من سمسير قذر.. سبحان الله، أعرج وأعور... ولم يسلم عليّ... انها عقوبة كبيرة... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تناسى"خبالو" عدم تحية الحاج له، وراح يسأل نفسه لماذا لم يسلم عليه هذا الأعور السمسير القذر، الذي عاقبه الله بالعرج والعوار؟ ولكي لا يترك لخياله أن يصور له بعض الأشياء التي ستدفعه لضرب "جاسم الأعور"، حاول الخروج من الغرفة... وفي لحظة تحركه عِبر باب الغرفة، سمع صوت الحاج يأتيه آمراً:

: خبالو.. اجلس.

عندها، عاد الى مكانه وجلس ساكناً، هادئاً.

تعالت أصوات الجالسين مرحبين بالحاج الذي أخذ مكانه، فيما وقف "جاسم الأعور" في زاوية الغرفة القريبة من الحاج.

كان الملّه سريعاً في عمله، اذ راح يدس الوسائد خلف ظهر الحاج والى جنبيه، ولسانه يلهج بعبارات الترحيب.

رد الحاج بكلمات غير مسموعة على عبارات الترحيب التي أطلقها الملّه، وجاسم وحميد الطويل، وشرجي قامه، وخبالو الذي تعالى صوته بعد أن سمع أصوات الآخرين.

: الله بالخير عمي الحاج.

: الله بالخير خبالو.. ها، صرت آدمي ! ؟

قهقه الملّه بصوت مسموع وهو يرنو ببصره الى حيث بجلس "خبالو" قرب الباب، اذ انتشرت أحذية الجالسين من حوله.

صاح جاسم الأعور:

: هذه بركاتك ياحاج... بركاتك التي اسبغتها على من يحبك.

ردد الحاج بصوت خاشع:

: أستغفر الله.. والحمد لله.

أسرع "خبالو" ناهضاً من مكانه، راكضاً الى حيث يد الحاج الممدودة في حضنه وأخذ يلثمها بشفتيه اليابستين من البرد.

صرخ الحاج "فريّح" وهو يسحب يده كالملدوغ من تحت شفتي خبالو:

: أستغفر الله.. أستغفر الله.

ثم ربت على ظهره متابعاً استغفاراته:

: أستغفر الله.. أستغفر الله.

أسرع "جاسم الأعور"، وسحب "خبالو" الراكع أمام الحاج... وراح يدفع به بعيداً عنه، وأوصله الى مكانه قرب الباب، وأجلسه.

: اجلس ياخبالو. صاح به جاسم الأعور.

وقبل ان تهدأ أنفاس "خبالو"، بعد أن حل جسده قرب الأحذية، كان صوت الحاج "فريّح" مازال يردد استغفاراته.

عاد"جاسم الأعور" الى مكانه...عندها سأل الحاج"فريّح" الملّه قائلاً:

: ها ملّانا .. هل أخبرت الشباب عن سبب اجتماعنا ؟

تحرك الجسد المترهل في مكانه... وسمع الحاضرون صوت ريقه وهو يبتلع، قال:

: الحمد لله والشكر له.. ثم مد يده الى عمامته البيضاء وعدل من وضعها على رأسه، وتابع قوله:

: - ان الله قد أنعم علينا، نحن أبناء قريتكم برجل عظيم، خدم الدين والناس... رجل الأعمال الصالحة... وانت هذا الرجل يا حاج، وكل شباب القريه وشيوخها، رجالها ونسائها... يعرفونكم يا حاج... يعرفون افضالكم ويعرفون.

: لقد بدأ التملق.. والكلام المدهون... قال هادي مع نفسه وهو يستمع لكلمة الملّه.. فيما تململ جمال في مكانه، وهو يخاطب نفسه وكأنه يحدث أحداً: سبحانه الله، هكذا تزوّر الحقائق.. سبحان الله... أما سليم فقد نظر الى زميليه نظرة حاول أن يوصل لهما ما حدّث به نفسه، اذ قال من بين شفتين مضمومتين ولسان ثابت: ياله من رجل متملق... أتسمعون لما يقوله هذا الملّه الغبي ؟

كان صوت الملّه مازال عالياً، فيما أصبح لون وجهه بلون الدم... وراحت بعض قطرات من العرق- رغم برودة الجو- تتجمع على صفحة الخدّين اللّحيميين.

: وقد كانت ليديك الكريمتين، ولعقلك الكبير دور في بناء هذه القرية ... ولفظلك في بناء المسجد مكانة كبيرة عند الله العلي القدير... وقد سارع شبابنا لحضور هذا الاجتماع عندما عرفوا انكم أنتم صاحب الدعوة وعرف الشباب مرادكم منه... وهم يعرفون عظيم فضلكم وانتم تخدمون قضية إمامنا الحسين.. و ..

قاطعه الحاج "فريّح" بعد أن ارتاحت نفسه لمثل هذا المديح، موجهاً سؤاله الى هادي:

: ماهو رأي والدك في ذلك يا هادي ؟

***

(٩)

كان فرح مهدي عظيماً بمقدم أخيه هادي وصديقيه سليم وجمال.. رحّب بهما كثيراً، عانقهم أكثر من مرة، قبلهم في وجوههم... ربت على أكتافهم... سأل عن أحوالهم وهم مازالوا واقفين.

كان مضيف القصب الذي دخله الشبان الثلاثة في بيت الزاير عبد الجليل أخي الشيخ عبد الكريم والواقع في احدى القرى البعيدة عن مدينة الناصرية، قد فرشت أرضيته بالبواري الصفراء. فيما مدت بحذاء ركنه الطولي المقابل للباب سجادة صوفية ملونة.

جلس الأصدقاء الثلاثة عليها متكئين على وسائد وضعها لهم مهدي خلف ظهورهم... وعلى الجانبين.

: اهلاً ومرحباً بكم.

كانت الجملة الوحيدة التي راح مهدي يرددها أكثر من مرة أمامهم، وهو باسم الوجه.

: اهلاً ومرحباً بكم، شرفتموني.

وكمن يريد أن يقطع سماع تلك الجملة، سأل هادي أخيه مهدي قائلاً :

: كيف حال العم، يا مهدي ؟

أجابه مهدي وهو يوزع "طاسة" الماء الكبيرة (الفافون) بين أصدقائه الجالسين:

: كلهم بخير. أخبرني عن أحوال الوالد، والوالدة، والأخت.

أجاب هادي وهو ينهض من مكانه، وكأنه يريد مغادرة المجلس:

: كلهم بخير، ويسلمون عليك.

وعندما انتهى الجميع من شرب الماء، استأذن هادي من أصدقائه، ثم خرج.

: أهلاً وسهلاً.. كيف حال زاير كاظم، يا سليم ؟

رد سليم:

: بخير والحمد الله.. وأنت كيف تسير الأمور معك ؟

أجاب مهدي، بعد أن وضع "طاسة" الماء قرب (الشربة) وجلس قبالتهم:

: أنا بخير، وأنت يا جمال كيف حالك ؟ وما هي أخبار الجماعة ؟

صرخ سليم كالملدوغ:

: ما هذا الكلام الملغوز ؟

بإعتذار قال مهدي:

: لا والله.. لا لغز ولا هم يحزنون.. أنت تعرف بأننا نعدك أكثر من أخ.. ولكن يا حبيبي كلمة الجماعة قد تعودنا على نطقها.

قطع جمال حديث صديقه مهدي، محدثاً سليم بإستفزاز مقصود:

: ولماذا لا تكون أنت مع الجماعه يا سليم.. ها، لماذا ؟

: دخلنا(بالحداد خانه). رد سليم متأففاً.

عندها قال مهدي مستفسراً :

: سليم، أي(حداد خانه) تقصد، كل ما هنالك، ان الجماعة يتمنون أن تكون معهم.

وكأنه يريد أن يبرر عملاً سيئاً قام به، رد على صديقيه قائلاً:

: الظروف.

: أي ظروف تقصد ؟ سأل جمال.

: ظروف العائلة.

رد عليه سليم، فيما أصبح لون وجهه أكثر اصفراراً.

قال مهدي بهدوء، وكأنه يريد أن يقنع صديقه بخطأ موقفه :

: ليست ظروفنا أحسن من ظروفك... وأنت أعلم بذلك... والبلد بحاجة الينا نحن الشباب... وأنت تعرف كل شيء.

: أنتم تعرفون موقفي. رد سليم بتخاذل.

وفجأة قطع سليم حديثه كمن يريد التخلص من شيء بغيض عنه وصاح بفرح:

: ها قد عاد هادي.

التفت جمال ومهدي الى الباب الواطيء للمضيف الذي غطاه جسد هادي، وشاب آخر.

: اقدم لكم ابن عمي كريم.

نهض سليم وجمال من مكانيهما مرحبين.

: طالب في الاعدادية.. في الصف الخامس العلمي.

تابع هادي قوله وهو يقدمه الى أصدقائه:

: أهلاً وسهلاً.. رد جمال وسليم، ثم صافحاه.

: ذكي، ومتفوق. قال مهدي، فتابع هادي القول:

: وإن شاء الله هذه السنة الى كلية الطب.

ردد الجميع : إن شاء الله.

قال هادي باسماً، وهو يغمز سليم:

: وأيضاً من الجماعة.

نهض سليم، فيما راحت نظرات الشباب الأربعة تحاصره من كل جانب..ثم راح يردد مع نفسه المثل المشهور: "ردتك عُون إطلَعِت فرعون"... عندها انطلق الجميع بضحكة عالية.

: أخوان.

قال سليم بعد ان سكت الجميع:

: أرجو أن تقدروا موقفي... لا أستطيع أن أنضم الى حزبكم... لي ظروفي الخاصة.

وكمن يريد أن يغيّر الحديث، قال كريم:

: ها هادي، بماذا جئت لنا ؟

: - بكل خير.

بتلهف سأله مهدي:

: قل بسرعة.

بخجل لاح على وجهه، نهض سليم مستأذناً، وهو يقول:

: سأخرج لأ تمشى.

: لا يا سليم... اجلس...أنت واحد منا، رغم انك لست في التنظيم، إلّا اننا نثق بك.

جذبه مهدي من طرف دشداشته قائلاً:

: اجلس... سوف نتحدث عن يوم (المقتل) وليس عن الحزب يا رجعي.

ضحك الجميع، فيما عاد سليم الى مكانه، وهو يبتسم خجلاً... فيما نهض هادي مستأذناً وهو يقول:

: سيخبركم جمال عن كل شيء، أما أنا فسأذهب لأستعجل عمتي في عمل الغداء.

صاح كريم:

: اجلب معك قوري الشاي والإستكانات.

عندما أصبح هادي خارج المضيف كان صوت جمال الهادئ الخجول هو من بقي في جو المضيف:

: لقد اتفقنا على أن نشترك في (التشابيه).

سأل كريم جمالاً:

: وموقف الحزب من ذلك ؟

ردّ جمال:

: الى الآن لم يأت أي جواب... ولكن هناك موافقة مبدئية بذلك.

: وكيف تتفقون دون علم الحزب ؟ سأل مهدي.

أجابه جمال:

: ربما إجابة الحزب ستتأخر.. وعندما تكون اجابتهم بالموافقة سنكون قد قطعنا شوطاً طويلاً في التدريب.

: أما لو كانت الإجابة بالنفي ؟ سأل سليم.

اجابه جمال:

: عندها سننسحب.

باندهاش صاح سليم:

: وأنا؟ أتتركونني لوحدي مع هذا الحاج الملعون، لأن الحزب يأمركم بذلك ؟

رد عليه كريم آمراً:

: ستنسحب معهم... الست صديقهم ؟

: لكنني لست حزبياً. رد سليم.

فقال مهدي:

: لكنك وطنياً... أنت أحد شباب القرية المثقف،والشعب يعتمد عليكم.

عندها سكت سليم، وهو يسمع صوت هادي الذي دخل عليهم حاملاً صينية الشاي وكأنه قد سمع كل مادار من حديث، فخاطب أخيه :

: هادي، والوالد ؟

سأل هادي: ماذا به ؟

اجابه مهدي: لايقبل.

بهدوء رد عليه: هل قبل بالأمر؟ وتابع قوله: ولكن، هل وزِعَتْ الأدوار. أقصد،هل عرف كل واحد منكم ماذا سيكون دوره؟

صاح سليم مهللاً:

: - انا سأقوم بدور الإمام العباس.

: أما أنا، قال جمال، فسأمثل دور الحسين.

: - كان الدور لي – صاح هادي – إلّا أن والدي رفض ذلك.

قال مهدي:

: اختيار ذكي.. كلمة حق يراد بها باطل.. لقد عرف حاج "فريّح" كيف يجذبكم اليه... لكنني متأكد انكم ستظلون كما كنتم... أولئك الشباب الذي يعتمد عليه.

سأل جمال:

: ماذا تقصد بكلمة حق يراد بها باطل ؟

إبتسم مهدي وقال:

: لقد أرضاكم بهذه الأدوار.

قال هادي:

: لكنه لم يجد من يعتمد عليه... ولاتنسى، ان دور الحسين الذي سيقوم به جمال سيكون مهماً بالنسبة لنا... أقصد بالنسبة للجماعة.

صاح سليم:

: وما دخل الجماعة بدور الحسين ؟

قال هادي:

: لا تخف، ان دورك مهم جداً ويفيد الجماعة كذلك.

قال مهدي:

: هذا لايهم. المهم أن يعرف الحزب كيف يستغل هذه المناسبة.

صرخ سليم : ماذا تقصد ؟

نظر الجميع اليه، وانطلقوا بضحكة عالية.

***

(١٠)

كان الحزن بادياً على ثياب وملابس الأطفال والنساء والشباب، أسوداً كالحاً فقيراً، إلّا انه لا يعكس الشعور الحقيقي لدواخل المرء، فلا يعرف ان كان حزيناً حقيقة، أو كان متملقاً، أو لا يعرف لماذا هو يرتدي هذه الملابس السود، كالأطفال. فيما الرايات السود قد ملأت فضاء القرية معلنة استشهاد الامام الحسين، ومكبّرة تضحية أخيه العباس. وتوشحت واجهات المحال بصور تمثل المأساة... فهناك صورة تمثل الامام العباس حاملاً راية وقربة ماء وهو يمتطي جواداً. وصورة أخرى"للشمر" وهو يحز رأس الحسين... أما دار الشيخ عبد الكريم، فقد انتشرت على أحد جدرانه القصبية لافتة سوداء نقشت عليها عبارة (يا حسين يا شهيد) وراح علم أسود يرفرف على باب الدار معلناً حزن أهله، وابنة الدار(هدية) فقد ارتدت ثوبها الأسود، فيما تركت شعر رأسها الطويل ينسدل الى الخلف خارجاً مما لفّت رأسها به.. وظل لون ثوب الأم السواد كالعادة.

: لقد تغيرت كثيراً.

قالت أم مهدي ذلك، وهي تضع أستكان الشاي أمام زوجها الشيخ عبد الكريم، بعد أن انتهى من تناول غدائه.

سألها وهو يحرك الملعقة الصغيرة في إستكان الشاي، وكأنه يريد أن ينهي الحديث عن تلك المرأة:

: متى عاد هادي ؟

أجابته: قبل قليل.

ثم وهي تستذكر ما تريد الحديث عنه، سألته:

: ها شيخنا، ماذا تقول ؟

بإندهاش سألها وكأنه لا يعرف مقصدها:

: ماذا اقول ؟

: قبل قليل اخبرتك بأنها قد تغيّرت كثيراً.

بتأفف رد عليها:

: وضعوا ذيل الكلب في القصبة أربعين يوماً، فوجدوه أعوجاً.. أم مهدي.. الأعوج أعوج.

: لا يا شيخ.

بهدوئها المعهود راحت تحدثه ببراءة نساء القرية: المرأة تابت.. هكذا أراها.. وأنت رجل مؤمن وتخاف الله.. لا تظلمها.. انها مسكينه.

نظر اليها بإستغراب.. بعد أن شعر أن زوجته قد جرته جراً الى أن يدخل في حديث معها عن تلك (العاهـ ...)، لكنه صاح قائلاً:

: أستغفر الله.. أنا أظلم أحداً يا أم مهدي ؟

أسرعت تجيبه:

: لاأقصد ذلك...لكنني أقول أنها تركت أفعالها المشينة تلك... أصبحت امرأة شريفة... لقد تابت، والله يقبل التوبة النصوح.

سألها، على الرغم من أن الانزعاج قد أصبح بادياً على وجهه:

: من قال لك ذلك ؟

أجابته:

: أنا شاهدتها بهاتين العينين.. قد أصبحت أكثر إحتشاماً.. والناس.. الناس يا شيخ عبد الكريم، أخذت ألسِنتهم تتحدث عنها بإحترام.

عندها قطع حديثها وهو يجلس أمام المنضدة الصغيره، حاملة القرآن، وقال:

: نسأل الله لنا ولها السِتر.

سكتت أم مهدي، وكأنها عرفت أن الجملة التي نطق بها زوجها الشيخ، هي نهاية الحديث... إذ رأته يفتح كتاب الله... ويبدأ بالتلاوة.

كانت أم مهدي، إمرأة في الأربعين من عمرها... وقد لازمت جسدها الملابس السود منذ سنتين حزناً على مقتل حموها الشاب عبد الحليم.

كان صوت الشيخ عبد الكريم مرتلاً آيات من القرآن يتردد في أرجاء الصريفة طاغياً على كل صوت... حتى أن ابنته هدية وهي تجلس أمام (تنكة)الماء في ساحة البيت، تغسل أواني الغداء وهي تنصت الى صوت والدها بهدوء تام.

حملت أم مهدي أواني الشاي، وبعد أن سلمتها لإبنتها لتغسلها، عادت الى الصريفة... فيما دخل ولدها هادي، عندها سمعا صوت الشيخ يقول: صدق الله العظيم.

سلم هادي على والده الشيخ، ثم إنحنى على يده وقبلها. سأله الشيخ عبد الكريم:

: ها... كيف كانت سفرتكم ؟

: الحمد لله... جميلة وموفقة.

: وعمك، كيف صحته ؟

: الحمد لله، على ما يرام، وهو يسلم عليك.

: ومهدي ؟

: يتمنى أن يراكم جميعاً.

: أقصد كيف وجدته؟ نفسيته، حالته، معنوياته ؟

: عال العال.

ولإنه يريد أن يتحدث مع ولده بإنفراد، طلب من زوجته أن تعد لهما الشاي... قال لها:

: أم مهدي، اعملي لنا شاياً جديداً.

عندها نهض الجسد المغطى بالسواد وخرج من الصريفة دون ضجة، وبعد أن تأكد الشيخ من خروج زوجته، التفت الى ابنه هادي الذي اختار له مكاناً لجلوسه قبالة والده، سأله -

- أما زلت مصراً على الاشتراك في التشابيه ؟

وبخجل، جاء صوت هادي هادئاً:

- كنت أرغب في تمثيل دور الإمام الحسين.

بإنفعال، صاح الشيخ مقاطعاً حديث ولده:

: أستغفر الله... أستغفر الله... هل لعب برؤوسكم هذا الكافر وشيخه الزنديق، أم انك قد جننت ؟.. ها .. قل؟

كان لون وجه هادي قد تغير أكثر من مرة . أصبح أصفراً كلون ضوء الفانوس، ثم جمد فزال عنه أي لون... وراحت كفاه يتعاركان فيما بينهما... وصوت الشيخ قد تعالى صارخاً غاضباً بابنه:

: أتضع نفسك بديلاً عن الأمام! ؟ أستغفر الله من كل ذنب عظيم، وصل الكفر الى بيتي.

لم ينبس هادي ببنت شفة.... لم يقل شيئاً، بل تضاءل أمام والده الشيخ الذي لم يفهم القصد من وراء كل ما سيفعله هو والشباب.

كان صوت الغضب داخل(الصريفة) قد تعالى في الوقت الذي سد بابها سواد ثوب أم مهدي، فيما وقفت خلفها(هدية) وهي تمد برأسها الى مدخل الباب محاولة معرفة ما يجري.

ظل صوت الشيخ هادراً، والجميع قد كبّله هذا الغضب غير المعهود عند الشيخ:

: أستغفر الله.. أستغفر الله.

حاولت أم مهدي أن تقول شيئاً، إلّا أن الشرر الذي تطاير من عيني الأب الغاضب والذي أمتلأت به الصريفة قد أخرسها:

:لقد عرف هذا الكافر أن يجمع حوله كفرة آخرين... أستغفر الله العلي العظيم... وأعوذ به من كل شيطان رجيم... ستقوم القيامة حتماً... سبحانك اللّهم، أغفر

لنا... قبل ساعات كانت أمك تقول... ان ... أستغفر الله... تلك المرأة... لا حول ولا قوة إلّا بالله... تلك المرأة تغيّرت... هل يعقل هذا ؟!

ثم بصوت هاديء يتقطر حناناً، تابع قوله:

: إبني... أنا أقول عنك إنك ولد عاقل، ويعرف حدود الله... هل استطاع هذا الكافر أن يدخل الشيطان في بيتنا... لقد عرف كيف ينال مني... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بدأ صوت الغضب يهدأ قليلاً... فإنسحبت(هدية) الى عملها في شؤون الدار بعد أن فهمت سبب هذا الغضب من خلال ما تجمع من كلام والدها، وما سمعته من نساء الجيران حول(التشابيه) في عاشوراء... كان والدها محقاً، إلّا أن هادي أفضل من يمثل دور الامام الحسين– هكذا حدثت نفسها وهي تغسل استكانات الشاي – انه شاب تقي ومن عائلة متدينة..ولكن..(الملحة)...أستغفر الله العظيم، كيف تمثل (الملحه).. أستغفر الله ... اللهم أعوذ بك من الشيطان الرجيم.

عادت أمها الى حيث تقف وهي تغسل أواني الشاي وتضعها في صينية صغيره.

: هل انتهيت ؟ سألتها الأم.

: نعم وسأرسلها اليهما.

: اسرعي، والدك بحاجة الى استكان شاي. ثم وكأنها تكلم نفسها:

: لا أعرف لماذا لا يقبل الشيخ بالتشابيه ؟ ! ثم وهي توجه كلامها الى ابنتها التي حملت صينية الشاي:

: الذي يمثل دور الحسين، يحصل على ثواب كبير... فلماذا لا يوافق والدك بذلك ؟ ها ؟

لم تقل(هدية) شيئاً، وانما خرجت من(صريفة) المطبخ حاملة الصينية الى حيث والدها وأخيها.

***

(١١)

بدأت التدريبات في مسجد القرية، وكان المصدر الذي اعتمده الملّه في رواية مقتل الامام الحسين، هو ما كتبه(أبو مخنف) من قصة يوم الطف، وهو كتاب صغير يباع في المكتبات التي تبيع الكتب الدينية، مثل مكتبة الشيخ عبد الكريم. ومقتل الامام وأهل بيته وأصحابه، صبيحة العاشر من محرم الحرام، تلك الرواية التي أصبحت مشهورة بين المسلمين، وأخذ كل شخص الحوار الذي سينطق به، والشعر الذي سيرتجزه. أما الأزياء، فقد تعهد الحاج بتوفيرها قبل يوم العاشر من محرم.

كل شيء قد بدا جاهزاً، إذ أن أغلب المشاركين في(التشابيه) يحفظون الكثير مما جاء في رواية المقتل من خلال سماعهم للقصة مئات المرات من أفواه قراء التعازي، الملالي المنبريين، فضلاً عن أن البعض قد سبق له أن شاهد أكثر من مرة (التشابيه).

كان الشباب متحمساً في أداء الأدوار، إلّا انهم في تحمسهم يصدرون من أسباب شتى، أي انهم ينقسمون في الغاية والهدف الى قسمين، على الرغم مما يشدهم الى التدريبات من حب للامام الحسين وأهل بيته

وصحبه، والمأساة التي ألمت بهم، ومحاولتهم للتعبير عن هذا الحب، ومن ثم كيفية اظهار(التشابيه) وكأنها حوادث تجري حقيقة أمام انظار الناس المتلهفين لرؤية إمامهم وهو يقتل أمام أنظارهم، مما يغسل فيهم شعوراً بالإثم إمتد عبر أكثر من ألف وأربعمائة سنة مضت لعدم نصرة إمامهم أمام ظلم الظالمين، لهذا دخل هادي وجمال في حوار طويل مع سليم حول الفائدة التي سيجنونها في التنظيم من هذه (التشابيه)، إذ رد هادي على هذا السؤال بلهجة مفعّمة بحكمة السياسي القدير، عندما قال:

: أخي سليم، ألا ترى ان الظلم الذي كان في ذلك الوقت ما زال قائماً، وإلّا ماذا تسمي ما يدور حولك من أمور الدولة والسياسة.. ها ؟

جفل سليم مما سمعه، وأحس أن هناك أكثر من آذان تَتَسمّع لحوارهم في الزقاق الذي ولجوه سوية بعد أكثر من ساعة من التدريب. قال متلعثماً:

: هادي رحمة على والديك إقلب صفحة.

سوية كانت ضحكة هادي وجمال تملأ الزقاق الذي راحت تفوح فيه روائح نتنة جلبتها الساقية التي امتدت في منتصفه تشقه الى نصفين وهي تعرض صورة من صور الظلم والقهر الذي يعيشه أبناء العراق الذين ينامون على محيطات من النفط كما أكد هادي، أما جمال فقد تابع قول رفيقه قائلاً:

: أليس هذا هو الظلم بعينه ؟

كان سليم يسير مع صحبه مطأطأ الرأس كانه يبحث عن شيء أضاعه في وحل الشارع، فيما بدأ الشيخ عبد الكريم يرفع آذان المغرب يليه الملّه.

كان الآذان القشة التي وجد فيها سليم وسيلة لإنقاذه من سماع ذلك الكلام الذي لا يود أن يسمعة، فبادر الى طلب الإذن من صحبه للذهاب الى البيت كي يلحق الفطور، قال:

: تفضلوا يا جماعة... الفطور جاهز وسيفرح الوالد كثيراً بوجودكم.

نظر الشابان الى بعضهما، وهم يعلمان أن الفطور كان حجة لسليم ليهرب من الحوار، لهذا قالا سوية: شكراً.

عندما تركهم سليم عاد القلق مرة أخرى الى نفوسهم التي لم تعد غضة كما كانت. لقد شعرا أن القلق والهم والتفكير الزائد ومن ثم إنتظار الموافقة، هو ما يجعلهم يعيشون في دوامة هذا القلق، إلّا أن هادي وكأنه يريد أن يقنع نفسه أكد لصاحبه قائلاً:

:أعرف انهم سيوافقون.

كانت جماعة هادي تهدف من وراء إشتراكها في (التشابيه) الى غير الهدف الذي يشد الآخرين للمشاركة في العمل نفسه، وفي الوقت نفسه، كانوا قلقين من عدم موافقة حزبهم على المشاركة فيها واستغلال مثل هذه المناسبة لقول ما يريدون قوله من أفكار كانوا قد أعدوا

العدة لأن يصرحوا بها في الوقت المناسب ليعرف الناس ما يدور حولهم من سياسة التخاذل والعمالة.

والآخرون فقد كان الهدف الذي يدفع بهم للمشاركة في (التشابيه)، هو التباهي أمام الناس، وعرض ما يمتلكونه من روح الشقاوة والبطش بالآخرين.

والحاج "فريح"، فقد كان ذكياً – هو والملّه – في توزيع الأدوار... فقد أوكل لجماعة هادي تمثيل الأدوار الأساسية في (التشابيه)، أما أدوار الشخصيات المعادية كعمر بن سعد والشمر بن ذي الجوشن فقد كانت من نصيب جماعته(شرجي قامه) و (حميد الطويل)، لا لأنه كان يعرف انهم لا يليقون بمثل هذه الأدوار حسب إعتقاد الناس فحسب، بل لأنه يريد أن يكسب الى صفه الشباب من جماعة هادي.

كان(شرجي قامه) شاباً طويل القامة، بجسد رياضي، وعضلات مفتولة نافرة. قضى جل وقته في النادي البسيط والوحيد في مدينته التي ولد فيها، وعاش حياة الفقر واليتم في كنف زوجة أب غير رحومة معه، اذ كان والده، أحد رجال الشرطة الخيالة الذي لا يستقر له مكان، وعندما شبّ، بعد ست سنوات من الدراسة الابتدائية التي كان متميزاً فيها توفي والده، فأجبرته زوجة الأب على ترك الدراسة، وبدلاً من العمل راح يتردد على النادي، يحمل الأثقال ليبني له جسماً قوياً يفيده في شبابه، كما قال له مدربه وجاره (أبو الحديد)، إلّا ان ثلاثة أشهر من التدريب العسكري، عندما سيق

للخدمة الإلزامية قد جعلته ينفر من كل شيء، فترك الجيش ووحدته العسكرية والبيت ومدينته الصغيرة وهرب، وجاء الى الناصرية، وهو يشد(قامة) فضية اللون حول ساقه، بشريطين جلديين، وبين ليلة وضحاها، وفي منطقة (باب الشطرة)، أصبح شقاوة المنطقة غير المنازع، فدخل في معارك لا سبب لها، مع أصحاب المحال في المنطقة، وأكثرهم من الناس البسطاء، فكانوا يبتعدون عنه لدفع شرّه عن محالهم... وعندما سمع أخباره الحاج "فريّح"، أرسل(جاسم الأعور) بطلبه، وأوصاه أن لا يأتي إلّا و(شرجي قامة) معه.

بعد أن أنهى(شرجي قامة) شرب إستكان الشاي في مكتب الحاج "فريّح"، خرج من المكتب وقد أصبح أحد مساعدي الحاج المهمين، وقد إمتلأ جيبه بالأوراق المالية.

لم يعرف شيئاً عنه وعن أهله، إلّا ان الفترة التي قضاها في مكتب الحاج وهو يشرب إستكان الشاي، قد جعلته من معية الحاج، ومن أشد المدافعين عنه، ومن أنشط الناشرين لأخباره، ومآثره وأعماله الخيرية في المنطقة والمدينة على السواء.

مرة، كان(شرجي قامة) يسير في شارع (عكد الهوه)، وقليلاً ما كان يصل الى هذا الشارع، اذ كان ينهي ساعات يومه متسكعاً في مقاهي (باب الشطرة)و(الصفاة)، ففوجيء بثلاثة من أفراد الانضباط

العسكري، وجهاً لوجه، لم يخف، إلّا انه حاول أن يميل بجسمه بعيداً عنهم، ليجتازهم دون أن يحتك بهم، عندها سمع أحدهم يصيح به: قف.

وقف دون تردد، فيما تابع الذي صاح به قوله: مستمسكاتك ؟

لم يفاجأ بما طولب به... وبفم ملأته ابتسامة عريضة تشي بالفوز، أجاب: أنا من جماعة الحاج "فريّح"... اذ سبق أن رأى أحدهم في منطقة (باب الشطرة).

وبعد نقاش حاد بين رجال الانضباط العسكري، أنهى أحدهم النقاش قائلاً: أخوان، أنا أعرف الحاج "فريّح"، سوف نذهب معه الى مكتب الحاج لنعرف الحقيقة.

أذعن(شرجي قامة) اليهم عندما مسكه إثنان من أفراد الانضباط العسكري من كلتي يديه، وما زالت الابتسامة تطفو على شفتيه... تحرك معهم الى حيث مكتب الحاج، وهناك، دفع الحاج لأفراد المفرزة ثلاثة أرباع الدينار فطوراً لهم، وعادوا بدون (شرجي قامة)، بل أن أحدهم همس في أذنيه قائلاً : عندما تحتاج الينا ستجدنا في (عكد الهوى).

أما (حميد الطويل) فكان طول قامته هو ما يميزه عن كل جماعة الحاج "فريّح"، وكان جسمه نحيلاً، شديد صفرة الوجه...إلّا انه كان ثرثاراً، لا يهدأ له لسان، ولا يوقفه شيئاً عندما يبدأ الحديث عن أي شيء

يعن له، وكثيراً ماحاول الحاج أن يثنيه عن عادته تلك... ومرة وصل غضب الحاج منه حداً جعله يرميه بنصف طابوقة، إلّا أن سرعة حركته جعلت رأسه بعيداً عن مرماها.

كان(حميد الطويل) وهي الكنية التي اطلقها عليه الحاج "فريّح" عندما جاء به (جاسم الأعور) لأول مرة من قريته قبل أكثر من سنة، قال للحاج: انه شاب لطيف، وقوي... وهو يتيم الأم، إلّا أن زوجة والده قد طردته من البيت، لأنه أصبح عالة عليها بعد أن هرب من الخدمة العسكرية، ولأنه غير معروف في القرية، فقد ضمه الحاج الى جماعته، وأسكنه مع (شرجي قامة) في أحد بيوت القصب التي بناها الحاج في القرية لمعارفه.

كان الثلاثة، جاسم وشرجي وحميد، هم شقاوة منطقة باب الشطرة، ومن مساعدي الحاج، والمدافعين الشرسين عنه، ومن ناقلي أخباره الخيرية بين الناس... وعندما اتفق الحاج والملّة على إقامة (التشابيه) كان إختيار الحاج لهم ليقوموا بأدوار أعداء الامام الحسين.

***

(١٢)

عندما أحبّت الجماهير العربية جمال عبد الناصر لمواقفه القومية المعروفة، ووقوفه بوجه العدوان الثلاثي على مصر، كان عبد ناصر قد سبق له أن خدم في الجيش العراقي. قاتل الصهاينة عام ١٩٤٨. وعندما عاد بعد الحرب بجروح كثيرة في بدنه، دخل المستشفى لأكثر من أربعة أشهر، بعدها أحيل الى التقاعد، فزوّجه عمه ابنته، وولدت له أربع بنات... ولم تفد معها كل فعل الكشافات، وفتاحي الفال، وأعشاب أمها، ولا زيارة مراقد السادة وأولياء الله الصالحين، وكذلك أطباء المدينة في أن تلد مولود ذكراً يحمل اسم العائلة، ويساعد الأب في أمور الحياة عندما يكبر.

مرة قال له عمه: لماذا ياولدي لا تأخذ زوجتك الى مراقد الأئمة ؟

لم يقل شيئاً على الرغم من أن ذلك كان أمنيته وأمنية زوجته. كانت كثيراً ما كلمته في ذلك، إلّا أنه كان يعتذر منها لقلة ما في اليد. فالأرض التي كان يزرعها لا تأتي بالكثير... وراتب التقاعد لا يكفي إلّا لأيام قليلة، والبنات بحاجة للملابس... ومتطلبات الحياة كثيرة، أما (الحلال) فقد صرف ثمنه على مراجعات الأطباء

ليداوون جروح حرب فلسطين، ولم يبق من(الحلال) الذي تركه والده بعد وفاته إلّا بقرة واحدة تؤمن لهم حليب الفطور، ولبن (الغموس).

إلّا ان عمه لم يسكت، وتحت الحاح زوجته عليه بأن يبيع أحدى بقراته ليذهب بثمنها ابن أخيه وابنتهم لزيارة مراقد الائمة. وكذلك ما كان يراه من همّ مرتسم كالغيمة السوداء على وجه ابنته، وابن أخيه، كل ذلك قد دفعه الى أن يفعل ماطلبته زوجته، فباع البقرة وأعطى ثمنها الى ابن اخيه:

: لا تهتم يا ولدي، الخير كثير، وأبوك الله يرحمه، كان لي كالأب، وكثيراً ما كان يمد يد المساعدة لي، فمشاكل الدنيا كثيرة، والتعاون الله يبارك به، وان شاء الله زيارة واحدة للأئمة، سيكرمكم الله بالولد الصالح.

ما قاله عمه لم يكن جديداً عليه، بل كان ذلك من أمانيه، إلّا انه لم يخبر عمه ان هذه السفرة ستكلفه مالاً كثيراً غير متوفر عنده... وهو يعرف أن (الحلال) قد بيع كله، والأرض بارت ولا تأتي بالكثير.

بعد لحظة صمت قصيرة، سأل العم :

: ها.. سكتت ؟

كانت الحيرة والخجل هما ما تقاسم لون وجهه، وفي الوقت نفسه، قال مع نفسه انه عمي ووالد زوجتي، لا بأس ان يساعدني من أجل أن تستمر سلالة زاير ناصر، عندها قال:

: عم، ان شاء الله.

رد عليه الرجل العجوز من بين شفتين باسمتين:

: وهل تستطيع أن تفعل شيئاً دون مشيئة الله سبحانه وتعالى... ها ؟

انتبه عبد ناصر الى أن عمه قد أساء فهمه، رد عليه بصوت مخذول:

: أعوذ بالله أن أعني ذلك، ولكن أنت تعرف ان العين بصيرة واليد قصيرة.

: ومن قال لك ذلك، ان الخير في بيت عمك وفير.

كان أكثر ما يغيضه هو كبرياؤه. وكذلك فهو لا يريد أن يزيد الدّين الذي في رقبته لعمه، فقد عمل الكثير له.

وكان الصمت هو الشيء الوحيد الذي ملأ المكان الذي كانا يجلسان فيه. ولكي لا تفوته هذه الفرصة التي هيأها له عمه، قال:

: الذي يراه الله فيه الخير.

وذهب عبد وزوجته الى النجف وكربلاء وبغداد. ووُلِد جمال عبد ناصر بعد تسعة أشهر من إغتسال زوجته من الحيض الذي جاءها بعد الزيارة بأيام قليلة، فذبح عبد خروفاً، فيما نحر جده ثورا كبيرا لوجه الله.

تساءل وقتها عبد عن مراجعاته وزوجته للأطباء، إذ قال مع نفسه: هل ذهبت مراجعاتنا تلك للأطباء أدراج الرياح؟ أم انها قد أثمرت جمالاً كالبدر لنا؟عند هذا الحد سكت ولم يقل شيئاً لنفسه الفَرِحة بمقدم جمال.

وكانت أم جمال هي التي بدأت الحديث وهي في فراش النفاس، فيما والدها ووالدتها وأم زوجها وزوجها وبناتها الأربعة محتفين بها، فرحين بالمولود الجديد... قالت:

: ماذا تسميه يا عبد ؟

كانت ترغب في سؤال والدها، اذ أنه خسر الكثير، فقد ضحى ببقرة في سبيل مجيء ابنها، إلّا أن حبها لزوجها، واحترامها للتقاليد المتبعة، سألته شخصياً.

كان الاسم مختبئاً في تلافيف ذهن عبد ناصر قبل أن يولد وقبل أن تلد زوجته ابنته الرابعة، فقد كان الناس يلهجون به، وكأنه تعويذة يرمونها بوجه الملك ورئيس وزرائه نوري السعيد، وكثيراً ما سمع أبناء المدينة يرددون هذا الاسم في مجالسهم الخاصة، أو في التظاهرات والتجمعات التي يقيمونها للتنديد بقرارات الحكومة، ولكن، هل يوافق عمه؟ أم انه يريد أن يسميه بإسم جدّه، ناصر، كما صرح له وأمام الأهل والأقارب أكثر من مرة ؟ وكما تعود أن ينادي على ابنته في فترة الحمل بهذا الاسم؟ أما هي فقد كانت ترد عليه مبتسمة خجلة:

: ان شاء الله.

تساءل مع نفسه: هل يوافقونه على هذا الاسم ؟

كان الكل يراقب عبد ناصر منتظرين أن يسمي ابنه... وعندما طال سكوته، بادره عمه قائلاً:

: ماذا تقول لو أسميناه؟ إلّا ان عبد ناصر لم يدع عمه يكمل حديثه ويسمي الوليد الاسم الذي يرغب... سارع بالنهوض وطلب من عمه أن يخرج معه لبعض الوقت، قال:

: دقيقة أنا وأنت.

خرجا سوية بعد أن ترك عبد ناصر عمه ووالد زوجته يخرج قبله من باب الصريفة. وبعد دقائق دخل العم ومن خلفه عبد ناصر وهما باسمان، الا أن زوجة العم قرأت من بين غضون وجه زوجها الشيخ الكبير بسمة تكتم خلفها حسرة لا تدري ماهي وما أسبابها.

قال الشيخ الكبير:

: مبروك بنتي أم جمال...

ثم وجه كلامه للآخرين الجالسين في الصريفة: مبروك للجميع... لقد هدانا الله الى هذا الاسم... جمال عبد ناصر... مبروك للجميع... وان شاء الله يكون من الرجال الصالحين، ويشرف الرجل الذي حمل اسمه.

ثم خرج الى الهواء الطلق من صريفة إبنته النفساء دون أن يقول شيئاً أو أن تلوح على صفحة وجهه المتغضن أية ملامح للغضب الذي شعر به لحظة طلب منه ابن أخيه أن يدع تسمية الوليد له لأنه قد اختار هو الاسم... اذ كان يرغب في أن يسميه على اسم أخيه المرحوم ناصر، إلّا ان زوجته العجوز التي عرّكتها السنين مع زوجها الشيخ الكبير قد فهمت لماذا كانت ابتسامة زوجها تحمل في طياتها غضباً قد كظمه، وهي

تعرف كيف أن هذا الشيخ يكظم الغضب، ويترك الحسرة تأكل قلبه دون أن يخبر أحداً.

كان عبد ناصر، بعد أن بارت أرضه، وباع كل ما كان قد ورثه عن أبيه من (حلال) ليصرفه على تربية بناته الأربع، وابنه (المدلل) جمال، ارتحل الى المدينة التي لم تستقبله في بيوتها المبنية بالطابوق لقلة ما في اليد... فإشترى قطعة أرض من الحاج"فريّح" وابتنى عليها بيتاً من القصب والبواري بسعر زهيد في الشارع العريض الذي يشق القرية الى نصفين. الشارع الرئيسي للقرية والذي يقع المسجد عليه، فيما أحيط المسجد بمجموعة من المحال الصغيرة لبيع الخضار واللحوم والمواد الغذائية والمنزلية. أما واجهات الدور فهي لاتختلف عن دور القرية، سوى أن أبوابها قد انتصبت بين عمودين بنيا من الطابوق والطين.

كان ذلك قبل أكثر من عام، ولما كان قلمه (باشطاً) فقد وضع له منضدة خشبية صغير ومجموعة من الأوراق وأقلام (القوبيا)، وجلس على كرسي من جريد النخل قبالة دائرة التجنيد، وراح يكتب للاخرين (العرائض).

كان أول من تعرف عليه في القرية هو الشيخ عبد الكريم. اذ وجد في هذا الرجل الورع، ذو اللحية البيضاء، والمسبحة السوداء، خير صديق له. لقد هداه قلبه الى صداقته عندما كان يراه صبيحة كل صباح يخرج من بطن الزقاق وعيناه مزروعتان في الأرض.

وبعد محاولات للاقتراب منه والتعرف عليه، إلّا انه لم يستطع تنفيذها، لأسباب كثيرة، راح في أحد الأيام يتبعه، سار خلفه متتبعاً خطواته، فرآه يعبر الجسر الصغير المبني على (شطيّط)، ويدخل السوق، حتى اذا وصل "الصفاة" التفّ من حولها وتوجه الى أحد المحال التي في ظهرها. كان المحل عبارة عن مكتبة كدّست على رفوفها الخشبية مجموعة من الكتب الصفراء، شمس المعارف الكبرى، وكتاب أبو معشر الفلكي في علم النجوم، ودواوين للشعراء، وكتب دينية، ومختارات من حكايات ألف ليلة وليلة، والمياسة والمقداد، وكتب أخرى وأوراق وأقلام... دخل مباشرة بعده، سلم عليه وقال:

: هل تأذن لي يا شيخ بالجلوس ؟

ثمة كرسي من الجريد يحتل صدارة المحل، أشار اليه عبد ناصر، ودون أن ينتظر الإذن منه جلس عليه، اذ فكر مع نفسه، ان الفرصة قد أتته الآن فلا يضيّعها من بين يديه كما ضيّع غيرها من قبل.

لم يندهش الشيخ لما فعله الرجل، فقد فعل ذلك أكثر من واحد قبله، ربما كان تعباً:

: صبحك الله بالخير.

قال الشيخ ذلك وتقدم الى باب المحل ومد رأسه الى الخارج وصاح:

: أبو على... إستكانين شاي من فضلك.

رد عليه عبد ناصر قائلاً: الله بالخير والعافية.

سأل الشيخ ضيفه:

: هل فطرت ؟

ابتسم عبد ناصر في الوجه ذي اللحية البيضاء، ثم قال:

: الحمد لله، وشربت استكانين من الشاي في البيت.

بعد أن جاء أبو علي بالشاي، سأل الشيخ الرجل الجالس أمامه:

: هل تأمر بشيء ؟

: نعم شيخنا، أريد صداقتك.

لم يدهش الشيخ، إذ انتظر ضيفه يقول كل شيء، قال مع نفسه: سنرى ما يريده هذا الرجل.

: أهلاً ومرحباً بك. قال الشيخ.

: أنا من أهالي القرية، أقصد من قرية الحاج"فريّح"، ومنذ اسبوعين سكنت فيها، ولا أعرف أحداً من اهلها.

مد له الشيخ يده قائلاً: أهلاً ومرحباً... تشرفنا.

: عبد ناصر، كاتب عرائض.

اراد أن يقول له انه منذ أيام حاول الاقتراب منه والتعرف عليه، إلّا أن الخجل قد حبسه عن ذلك.

: عرفت انك تبيع الورق والاقلام، فقلت لماذا يا أبو جمال لا تشتري من هذا الشيخ الذي يخاف ربه، وتكسب صديقاً.

رد الشيخ باسماً:

: - المكتبة وما فيها تحت أمرك يا أبو جمال.

: الله يرزقك شيخنا.

رد الشيخ:

: أبو مهدي.

: عاشت الاسماء.

***

(١٣)

: يا جمال يا عبد يا ناصر ...

جاءه صوت والده من صريفة الخطار مليئاً بالغضب، وهو يعْبر عتبة الباب الخشبي لدارهم .

كان الصوت حاداً غاضباً، ضج له جو البيت. تساءل: كيف عرف والده بعودته. هل كان ينتظره ؟

تدافع الدم في رأسه، كانت المفاجأة قد شلته، وأحسّ بالاختناق. كان أهم سؤال شغل فكره تلك اللحظة هو : لماذا عاد والده في هذه الساعة من الظهيرة والدوام لم ينته بعد ؟

كان جمال قد وصل للتو، بعد أن مرّ مع زميليه هادي وسليم على مكتبة والد هادي الشيخ عبد الكريم لشراء بعض القرطاسية، وما زالت كتب الدراسة بين يديه، ومبرهنة درس الهندسة ما زالت عالقة في ذهنه... ورغم كرهه لهذا الدرس، إلّا انه قد خصص له ساعتين في اليوم لحفظ مادته استعداداً للامتحان الوزاري للحصول على معدل يؤهله لدخول كلية الهندسة.

دخل الصريفة منشده البال، وفي الوقت نفسه كان قد هجم على تفكيره سبب عودة والده المبكرة،

والصرخة الحادة التي شلّته، وبعد السلام، طلب منه والده مباشرة وبصوت آمر حاد أن يجلس امامه.

كانت أم جمال في صريفة المطبخ، تعمل بنشاط لتعد الغداء لزوجها الذي عاد مبكراً... كانت هي الأخرى مشغولة البال... وقد سألت نفسها أكثر من مرة عن سبب عودة زوجها المبكرة... وان ما منعها عن سؤاله، هو انها رأت على صفحة وجهه علامات الغضب عند دخوله البيت.

كانت صرخة زوجها قد أوقفتها عن العمل، وأخرجتها من حالة الانشداه الى حالة أخرى لم تعرف معنى لها، جعلتها تترك عملها وتنتظر ما سيحدث بعد هذه الصرخة الغاضبة... سمعت زوجها يصرخ بإبنها:

- ها.. كيف أحوال الدراسة ؟

كان صوته قد تميز بالغضب... أما المسبحة السوداء ذات المئة خرزة وخرزة، التي كانت بين أصابع يديه فقد شدت بقوة حتى يظن من رآها انها ستنقطع لا محالة.

أجاب جمال، رغم ما فوجيء به من غضب :

- الحمد لله.

صرخ الأب:

- الحمد لله... ها... والحاج "فريّح" ؟

صعقه السؤال... اذ لأول مرة يسمع من والده مثل هذا السؤال... إلّا أن الأب لم يدع لإبنه الفرصة للإجابة، فتابع قوله، والغضب ما زال مسيطراً عليه:

- أقصد التشابيه ؟!

أجاب الإبن وقد تلبسته حالة من الخوف، إذ أصبح كالطفل الذي ارتكب خطأً جسيماً:

- ماذا عنها ؟

رغم أن حدة الغضب قد خفت، ألّا ان صوت الأب ما زال عالياً:

- أقصد دورك فيها ؟

أجاب الابن:

- سأقوم بتمثيل دور الإمام الحسين.

كان وقت الظهيرة قد بدأ بإزالة ما تبقى من برد صقيعي من ليلة البارحة، فيما تكشّفت بقع من السماء، بعد ان تفرقت الغيوم، فبدت أشعة الشمس تتسرب من خلل تلك البقع نازلة الى الأرض لتوزع دفأها بحياء على الناس المقرورين، وأغلبهم بالكاد يكسو جسده ثوب واحد، كالح اللّون. إلّا أن صرخه الأب الثانية: ماذا ؟ قد جمدت الدم في عروق الأبن الراكع أمام والده، فأحس برجفة تلبّست كل جسده... كأن خيطاً بارداً صعد من الأرض مع عموده الفقري وتوزع في نواحي جسمه.

جفلت أم جمال وهي في الصريفة الآخرى، فأنهالت على أذنيها عشرات الاسئلة التي راح الأب الغاضب يصرخ بها في صريفة الخطار.

نزلت هذه الاسئلة كحمم بركانية، سائلة، لزجة، مشتعلة على جمال، أحس بجسده رغم برودته يحترق

بها، ولم تستطع ذاكرته أن تحتفظ بواحدة من تلك الاسئلة، إلّا ان مافهمه هو أن والده قد سأل عنه في المدرسة، وان المدير قد أخبره أن ابنه جمال قد ترك المدرسة مع طلاب صفه بعد الدرس الثالث، لعدم وجود مدرس.

كانت أسئلة الأب الغاضب، هي التي اصبحت بالنسبة للابن، الجحيم الذي عاشه تلك اللحظة، فإمتدت مع برودة الجسد، وحمم براكين غضب الأب الحيرة والقلق والخوف، إلّا ان ما أخرجه من كل ذلك، هو:

- ماهي علاقتك بمهدي ؟

كان السؤال هذا، هو القشة التي كسرت ظهر تلك الحيرة وذلك الخوف... لقد انتشله هذا السؤال من كل ذلك، فأسرع بالإجابة دون تردد:

- زميلي في المدرسة وصديقي في المنطقة.

إلّا ان الكلمة التي نطق بها الأب بكل حدة، قد صعقته مرة أخرى، فجعلت تفكيره يتيه في دروب لايعرف لها نهايات:

- والحزب ؟

كانت لفظة الحزب حادة الحواف، كقطعة زجاج مهشمة، راحت تعمل في خلايا جسده بكل شراسة. هذا هو بيت القصيد، قال جمال مع نفسه ولم يرد بشيء على تسائل والده، فيما راح لون وجهه يتغير بسرعة، انتبه لها الأب الغاضب... أحمرٌ، أصفرٌ، باهت... مما دفع الأب الى أن يصرخ بقوة:

- ألم انصحك بالإبتعاد عن أي حزب سياسي...ها ؟ لقمة الخبز نحصل عليها بالكاد، وأنت صاير سياسي... ماذا أقول للحكومة...ها ...ماذا أقول لعبد ؟

كان إسم (عبد) هو الذي أخرج جمال من تبدّلات لون وجهه، ومن الخوف والقلق اللذَين تلبساه منذ أن سمع صراخ والده لأول مرة قبل لحظات... أجاب وهو يخفي عينيه بين الخيوط الملونة للسجادة المفروشة على أرضية الصريفة:

- وما شأن عبد ؟

صرخ الأب:

- يعني صاير سياسي ؟

- أبي... أنا لم أقل ذلك.. ولكن....

قاطعه الأب بحدة:

- لا لكن، ولا هم يحزنون... أنا أعرف كل شيء من زمان... قل لي هل صحيح قد انتميت لحزب سياسي ضد الدولة أم لا ؟

لم تكن الحيرة التي قد ترسبت في خلايا دماغه من ذلك السؤال سببها قول الحقيقة، وإنما كان السبب في ذلك، هو ماذا سيكون ردة فعل هذا الأب الغاضب على أية اجابة سيقولها... إلّا انه قطع خيط تلك الحيرة، وأجاب بصوت ثابت مكين بعد أن حاول أن يسترد بعض تفكيره، ورباطة جأشه اللائي فقدهن منذ أكثر من نصف ساعة وهو يجلس أمام والده كالمجرم الذي يجيب عن اسئلة محقق شديد المراس:

- نعم.

مرت لحظات من السكون القاتل الذي خيم على فضاء الصريفة وخرج الى فضاء الدار وتمدد حتى وصل الى صريفة المطبخ، إلى الأم التي أسرعت بالخروج والتوجه مباشرة الى حيث زوجها وابنها وهي تحمل صينية الغداء لتنهي حالة الغضب التي تلبست زوجها، فراح يكيلها لإبنه الوحيد... وحالة الخوف التي عاشها ابنها الوحيد، عندما دخلت عليهما، كان الأب صامتاً وعيناه تحدقان في باب الصريفة... فيما وجه ابنها منكّساً الى الأرض.

وضعت الصينية بينهما... وبعينين حانيتين، رمقت زوجها وكأنها تطلب منه أن يكون رحوماً مع ابنهما الوحيد.

***

(١٤)

كان مجلس العزاء الذي يقام قرب قيصرية القماشين، هو موعد هادي وأصدقائه مع مسؤولهم، الأستاذ صبحي.

أربعة شباب، من طلاب الثانوية، يسكن اثنان منهما قرية الحاج "فريّح"، وهما هادي وجمال، فيما يسكن زميلاهما حمد ومحسن في القسم الداخلي، لأنهما من مناطق بعيدة عن المدينة.

هكذا ضرب الأستاذ صبحي معلم التربية الرياضية في إحدى مدارس المدينة والمسؤول الحزبي لهم موعده مع هادي، الذي عليه أن يوصل هذا التبليغ الى أصدقائه الطلاب. أكد على هادي بعد أن انتظره في أحد الأزقة التي يمر فيها عند عودته من المدرسة، فقال له:

- انتبهوا جيداً... موعدنا في مأتم العزاء الذي يقام في سوق الندافين.

كان ذلك في اليوم السابع من أيام شهر محرم الحرام... وهو اليوم الذي تحل فيه ذكرى مقتل الامام العباس... والذي سيقوم في تمثيل دوره زميله سليم

الذي رفض ان ينتمي الى صفوف الحزب، رغم الحوارات التي أجراها معه هادي حول ذلك.

أكد الأستاذ صبحي لهادي، قبل أن يتركه ويمضي الى المكان الذي يختبيء فيه عن أعين رجال الحكومة:

- عليكم أن تجلسوا في منتصف المأتم، وأن تتركوا بينكم فسحة من المكان لأجلس فيها عند مجيئي بينكم دون أن ترقبني العيون... ثم أكد: سآتيكم بالزي العربي كي أضيع بين الناس في المأتم.

كان الموعد بعد الساعة السادسة مساءً، وهو موعد إقامة المأتم... وكان الهاجس الذي يجول في نفس هادي وجمال، هو كيفية إقناع والديهما بتأخرهما الى وقت متأخر من الليل. فقد حظر عليهما الذهاب الى المآتم المقامة في المدينة في الليل. فضلاً عن ان هناك أكثر من مأتم مقام في القرية ويمكن حضورها عدا مأتم الحاج "فريّح" الذي يقام في منطقة باب الشطرة والذي منعوا عن حضوره، لأنه لا ثواب فيه كما قال الشيخ لأبنائه ولصديقه أبو جمال، وتابع قوله: فلوس حرام.

إلّا ان هادي وجمال اتفقا على أن يخبرا والديهما بأن مدرس الرياضيات سيلقي محاضرة اضافية على طلبة صفهم... فخرجا من بيتيهما تلاحقهم وصايا الأهل بألا يتاخرا كثيراً.

عندما جلس الأصدقاء الأربعة في المكان الذي حدده لهم مسؤولهم الأستاذ صبحي، كانت السماء سوداء حالكة وهي تعد بمطر ثقيل، فيما الهواء يجلد وجوه

الجالسين بسياط ثلجية حادة الحواف... فيما كان الهاجس الذي أثقل على هادي وجعله مشدوه البال هو قلقه على مسؤوله، وكيفية مجيئه والتكلم معهم وفي الوقت نفسه، محاولة تصغير جسمه وهو يجلس القرفصاء جنباً الى جنب مع زميله جمال خوفاً من أن يراهما والديهما اللذان جلسا بالقرب من المنبر... اذ أية التفاتة صغيرة منهما ينكشف أمرهما.

كان المنبر المصنوع من الخشب الرخيص، والمطلي باللون الأسود، قد وضع في الجهة الغربية من المأتم الذي امتد على مساحة واسعة من شارع الندافين.

كان الشيخ عبد الكريم وصاحبه عبد ناصر يحضران في كل ليلة الى هذا المأتم دون سواه... وعندما سألت أم مهدي زوجها الشيخ عن سبب ذهابه الى هذا المأتم البعيد رد عليها قائلاً:

- أم مهدي الذهاب الى مثل تلك المآتم فيه ثواب وفائدة كبيرة... فالخطيب عالم ديني متمكن. فهو يفسر سور من القرآن وبعض أحاديث النبي. وكذلك يعطي درسا في الاخلاق والتربية... على خلاف قراء المآتم هنا في القرية... لا همّ لهم سوى قتل الأئمة والنعي عليهم بصوت غنائي ممجوج... عشر دقائق وينتهي المجلس وأبوك الله يرحمه.

فردت عليه قائلة:

- وماذا تريد أكثر من هذا؟

قال لها وهو يلف على بطنه حزام (الحياصة) السمائي اللّون:

- المجالس مدارس أم مهدي.

عدل الشيخ عبد الكريم من حزام(الحياصة) على بطنه، بعد أن ارتدى الصاية، وتابع قوله:

- المآتم مدارس... مدارس في كل شيء... انهم يشرحون للحاضرين أمورا في الأخلاق والعلم والاقتصاد..و..

ارتدى سترته، وتابع قوله :

- المأتم عندهم أكثر من ساعة.

بعد أن تهيأ للخروج، أردف قائلاً:

- أم مهدي ليس كل من هب ودب أصبح خطيباً وصعد المنبر.

وقبل أن يخرج من باب الصريفة، نبهها الى أن تخبره بوقت عودة ابنهما هادي، ثم قال:

- الدنيا ليست آمان هذه الأيام... والولد صاير...

اراد أن يقول انه(صاير سياسي) إلّا انه أحجم عن ذلك، وخرج ميمماً صوب دار صاحبه أبو جمال.

عندما جلس الأستاذ صبحي في المكان المتروك له، قال بصوت خفيض:

- السلام عليكم.

رد الشباب الأربعة بصوت واحد، بالكاد سمعه الأستاذ صبحي:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كانت قلوب الشباب الأربعة قد تسارعت ضرباتها. فيما تغيّر لون وجوههم... وبدأت اجسادهم ترتعش ليس من برودة الهواء المحيط بهم، بل من هول المفاجأة... وكذلك من حالة القلق والخوف التي تعرّشت في نفوسهم خوفاً على مسؤولهم... وعلى أنفسهم... إلّا أن ما بدد تلك الحالة، صوت مكبرات الصوت التي راحت تدوي في فضاء الشارع حاملة صوت الخطيب... وكان الجميع ينظر الى شاب في الأربعين من عمره، يعتمر عمامة بيضاء وهو يرتل آياتٍ من القرآن بصوت رخيم، منغم... وقد تاه في دنيا غير دنيا الجالسين، كأنه يعيش في ملكوت خاص به.

كان الخطيب حليق الوجه، بعينين مكحلتين بالسواد، ووجه لحيم يضرب الى الحمرة.

تهادى صوت الأستاذ المسؤول، الأستاذ صبحي، هامساً في أذن هادي الذي كان يجلس على يمينه:

- أوقفوا كل النشاطات الحزبية.

كان جمال الذي يجلس الى يسار مسؤوله، قد أمال برأسه قريباً من أذن المسؤول، فيما جلس حمد بالقرب من جمال ومحسن قريباً من هادي.

سأل بصوت خفيض:

- لماذا أستاذ ؟

قال الأستاذ المسؤول وهو خافض الرأس:

- عندما ينتهي المأتم سنخرج متفرقين... وسنلتقي بعد نصف ساعة في المكان الذي كنا نلتقي فيه في كل مرة، قرب (الروف).

هذا كل ما قاله الأستاذ المسؤول للأربعة المنتمين الى التنظيم الحزبي.. فيما كان صوت الخطيب يأتيهم وقوراً هادئاً وهو يفسر بعض آيات من القرآن التي تذكرها الزملاء الأربعة، آية، آية...اذ كانت تدرّس لهم في درس التربية الاسلامية فراحوا ينصتون اليه.

أخذهم الخطيب الى مأساة مقتل العباس... وعندما بدأ بقراءة الفاتحة انتبه الزملاء الى أن المكان الذي كان يجلس فيه الأستاذ صبحي خالياً.

وعلى(الروف) التقى الزملاء الأربعة بمسؤولهم الأستاذ صبحي تحت سماء سوداء لا قمر فيها، وقد تكاثفت الغيوم، وراحت سياط الريح الباردة تجلد الوجوه الشابة وتحيلها الى صفحة من الجلد اليابس.

كان (الروف) هو المكان المناسب لمثل هذا اللقاء الذي سيتقرر فيه نشاطات الشباب الأربعة، وهم واقفون أمام مسؤولهم والقلق يخيم عليهم، والعيون لا تهدأ حركتها في ليل (الروف) البهيم.

قال الأستاذ صبحي بصوت سمعه الشبان الأربعة هادئاً رزيناً:

- علينا الانتباه جيداً... عيون رجال الأمن تبحث عن الحزبيين الكبار... اعتقلوا الأستاذ منذر صباح هذا اليوم وبعض الحزبيين في الشطرة، وفي سوق الشيوخ،

وفي أماكن كثيرة من المصرفية، وربما لن تروني بعد هذا اليوم... عليكم أن تكونوا حذرين جداً، تخلصوا من أية ورقة لها علاقة بنشاطكم الحزبي، احرقوها، مزقوها... خبؤوها... المهم أن لا يبقى شيء يدل على انتمائكم... ولكن لا تنسوا أن المستقبل لنا، وليست هذه الحالة جديدة على أصدقائكم في الحزب.

قاطعه حمد قائلاً:

- لكن أستاذ...

إلّا أن الأستاذ المسؤول، تابع قوله:

- تأكدوا أن المستقبل لنا.

سأله محسن:

- أستاذ وهل سيلقون القبض علينا ؟

بالكاد توضحت أمام العيون الشابة ابتسامة ارتسمت على شفاه المسؤول، وبصوت أبوي حنون سأل:

- محسن هل تخاف ؟

رد الشاب محسن:

- أنا... كلا.

- جيد.. لكن لاتنسوا أن الكثير من رفاقكم القياديين الأن خلف القبضان... ولا أقول هذا لأخيفكم... بل لأزيد من حماسكم ... لأن السجن للرجال ، وانتم رجال.

وقبل أن ينهي حديثه معهم، وكمن يتذكر، قال:

- ها.. لا تنسوا أن رجال الأمن في بغداد ألقوا القبض على الحزبيين في قيادة الحزب المتقدمة، فلم

يبق من القيادة أحد خارج السجن، ولهذا تم ايقاف أي نشاط حزبي الى اشعار آخر... مفهوم؟

صاح الشباب الأربعة بصوت واحد:

- نعم أستاذ.

***

رواية ما حدث بعد ذلك
"تقولات الناس"

قال كاتب هذه الأوراق، بعد أن أنهى كتابة السطور السابقة التي تروي القليل من أخبار بعض الشباب الذين عاشوا أياماً عصيبة لعشرة أيام، وهم محاطون بكل رموز النهي والممنوع، ان كان ذلك من قبل عوائلهم، أو كان بسبب قوى خارج نطاق فعلهم النضالي لتوقفه، لهذا كانت هذه الهوامش التي دونتها، وهي أخبار يمكن القول عنها انها مضافة، وقد بذلت جهداً كبيراً في الحصول عليها لما فيها من فائدة تنير شعاب النص الذي بين يديك قارئي العزيز، قوة في الصدق ليس على المستوى الواقعي فحسب، بل يتعداه الى المستوى الفني الذي صيغت من خلاله الأحداث المروية.

هذه السطور التي يمكن ان أسميها رواية ما حدث، أو سرد لما بعد الأحداث، جاءت لتعرية الروح الثورية التي تبحث عن نضال في مجال اتخذته الحكومة أيضاً لضرب هذه الروح الثورية.

وقال أيضاً:

جاء فجر العاشر من شهر محرم ليس كأي فجر يوم آخر، قبله أو بعده، لا لانه حزين، كئيب، بارد، مليء بالرياح، وهطول الامطار، وقتها قال الناس: ان أبواب السماء قد فتحت على مصراعيها، فيما أصوات الرعد تدق طبولها، ووميض البرق يشق سواد السماء

المهطالة كالسيوف اللامعة، وتقوّل الناس الأقاويل. فالبعض قال انه غضب من الله، وأنهم شاهدوا نجمة أم ذويل تسقط من السماء وهذا علامة شؤم عندهم، اذ أن الليلة هذه هي ليلة عاشوراء. وقال آخرون، ان الله غاضب من عباده لأنهم ابتعدوا عنه. فيما قال جمع ثالث، وهم المؤمنون المتنورون، انه رسالة غضب للحاج "فريّح" و "مُلّاه" ذي الوجه اللحيم،لأنهما حاولا تشخيص الأئمة بصور آدمية غير مؤهلة لذلك. فيما قال بعض الشباب المنظمين في حزب يناهض الحكومة، والذين أصبحوا مطاردين من قبل رجال السلطة، ان هذا الفعل الإلهي، يحمل رسالة ذات وجهين، فهو من جهة يمنع رجال الأمن أن يطاردوا ما تبقى من رفاقهم المناضلين، فتفتح أمامهم مجالات عديدة في اتخاذ موقف مناسب. أما الوجه الثاني فهو الوجه الغاضب من أفعال السلطة التي كان همها تكميم الأفواه الخيّرة، وخاصة هؤلاء الشباب لِما يناضلون في سبيل تحقيقة من أهداف وطنية هي تحرير البلد، وأهداف انسانية، خاصة تحرير فلسطين المغتصبة.

وهكذا انتشرت هذه "التقوّلات" في الساعات الأولى من أول زخة مطر قوية، وهبوب ريح ثلجية في الشوارع والأزقة، حتى اذا خليت الشوارع ، وأخذ الناس يبحثون عن أية وسيلة للدفء، وكلها وسائل غير ذات فائدة ، وجدت كل عائلة في مثل هذه الأقاويل

وسيلة تدفئ بها أفواهها ذات الأسنان المصطكة من البرد.

كان فجر هذا اليوم، لا كأي فجر مر على ساكني قرية الحاج "فريّح"، منذ أن رفعت على أرضها التي كانت مهددة دائماً بفيضان(أبو جدّاحة) معالم أول صريفة من القصب والبواري لأول دار بنيت فيها... كان ذلك الفجر، رهيباً، مرعباً، اذ خلت الشوارع التي ملأتها الأوحال والمستنقعات المائية من أي بشرٍ أو حيوان، بل أن بيوت القرية وشوارعها وكل ساحاتها، كانت مهددة بالفيضان، وكان نهر الفرات، كما أخبرني أحد أبناء المدينة، قد زاد فيه منسوب المياه، و(روف أبو جدّاحة) لا يستطيع الصمود أمام هذه الزيادة، لهذا فأن الفيضان في مثل هذا الجو الذي ظل فيه المطر يتساقط ثلاثة أيام متتالية، واقع لا محالة، وإذا أرد الله – كما تابع صاحبي قوله – أمراً قال له كن فيكون.

كان فجر هذا اليوم،لا كفجر أي يوم مضى، في هذه القرية أو في أية مدينة أخرى... إذ لم يفتح فيها باب أي محل من محال السوق الصغير، حتى باب المسجد، كما أكد لي أحد الذين رووا لي بعض تلك الأخبار، ظل مقفلاً، ولم يسمع في فجر ذلك اليوم صوت (الملّه) مؤذناً، ولم يعرف السبب، إذ أن الغضب هذا، كما أكد محدثي، هو من الله ((إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)).

تساءل بعض الناس عن(الملّه) وصاحبه (خبالو)، إذ لم يقعوا على أثر لهم، لا في المسجد، ولا في بيت الحاج "فريّح" ولا في المدينة.

أما أرض الساحة التي أعدت لتكون ساحة معركة بين جماعة الامام الحسين، وجماعة يزيد، فقد غرقت بمياه الأمطار، وأصبحت قطعة من الوحل اللزج، وبعد أن توقف المطر، ويبست الأرض، أصبحت سبخة، فلم يمر بها أحد منذ ذلك اليوم وحتى كتابة هذه السطور.

تساءل الناس عن السبب، بعد أن تحولت الدور القصبية الى دور مبنية بالطابوق والاسمنت المسلح وقد طليت واجهاتها بالوان زاهية، وشقت الطرق المعبدة، قال محدثي، ان تشاؤم أهل القرية من الساحة، جعلها تبقى كما هي بعد أن انقطع المطر، ويبس الوحل.

لا شيء – في فجر ذلك اليوم – ينبيء عن وجود حياة بشرية أو حيوانية فيها... في هذا الفجر لليوم العاشر من محرم، وفي الساعات الأولى منه - كما ذكر بعض من تحدثت معهم بعد عشرين عاماً – والسماء مازالت غاضبة، سوداء مكفهرة، والمياه تنزل منها كالشلالات ، عبرت سيارة (رينج روفر) انجليزية الصنع، خضراء اللون، الجسر الكونكريتي الصغير الذي يربط المدينة بالقرية. كانت السيارة تقطر ماء من كل مكان فيها، ولم يشعر أهالي القرية – وقتها - بمرورها، ولم يعرف من كان فيها، أو الى أين تتجه،

لأن البرد والمطر أخذهم الى عوالم غير عالمهم الذين يعيشون فيه.

كانوا يتدثرون بكل قطعة نسيج حوتها صرائفهم التي راحت (تَخَر) الماء من أماكن عديدة لسطوحها المائلة.

***

إذن:

لا يمكن إعادة الماضي، ولكن يمكن تذكّره.

***

تقوّلات / ١

(الملحه)

أكثر ما حيّرني هو مصير(الملحه) الفتاة التي لم أرها طيلة حياتي، وانما سمعت بعض أخبارها من أهلي وبعض معارفي، وكانت هذه الأخبار متضاربة، وخاصة الأخبار التي تتحدث عن مصيرها، وكلها أخبار غير موثوقة، وإنما هي"تقوّلات" يحمل البعض منها حقداً دفيناً لها، فيما كان القسم الآخر لا يعبه بما سيكون رد فعل السامع على ما يورده هذا المتحدث.

هذه الفتاة ذات الثمانية والعشرين عاماً، والتي لم يدم بقاؤها في قرية الحاج "فريّح" أكثر من ستة أشهر، وقد اختارها الحاج و(الملّه) لتشترك من بين نساء القرية لسهولة انقيادها ولعدم وجود شخص يمنعها من الظهور في (التشابيه)، وكذلك لعدم قبول بعض نساء القرية في الاشتراك في (التشابيه).

لم تكن تلك الأخبار مؤكدة، ولا حتى مصادرها. إذ لم تكن موثوقة بصورة جيدة، وقتها تساءلت: هل

راحت تلك الفتاة ضحية الهجمة الشرسة التي قامت بها أجهزة الأمن لإلقاء القبض على بعض الشباب ؟ على الرغم من أنها لا تعرف شيئاً عن السياسة، أو عن أي حزب مناهض لسياسة الدولة، إلّا ان الناس الذين لا يخافون الله كثيرون، فربما وشي بها أحد هؤلاء بسوء نية، أو انها راحت ضحية للنفس المريضة (للملّه) كما ذكر لي بعض من سألتهم من شباب القرية ممن كانوا يحضرون على هامش التدريبات على (التشابيه) ؟ وعندما حاولت أن أحصل على اجابة مؤكدة من "جاسم الأعور" عن هذا الإتهام، فوجيء بالسؤال، فضرب جبهته وصاح :

: صحيح... كيف فاتني ذلك ؟

ثم وهو يروي لي حكاية بحثه عنها، ذكر موقف(الملّه) منها، إلّا انه، وبعد تفكير عميق بدا على قسمات وجهه وهو مغمض العينين، العوراء وشبه السليمة، أنكر أن يكون (الملّه) نفسه قد وشى بها الى الأمن، نكاية بها لكونها سياسية، لأنها لم تسلمه نفسها.

كان بين الحين والآخر يردد قائلاً:

- لا... لا... لا أظن ذلك.

وعندما قلت له:

- ربما هربَت معه ؟

قال مؤكداً:

- التقيت بـ (الملّه) بعد أن عرف الجميع انه رجل أمن أثناء بحثي عنها، لقاءً سريعاً في بغداد، لم يطل سوى

دقائق معدودة، اذ أنهى هذا اللقاء سريعاً، وكأنه لا يريد أن يتذكر أيام اقامته في القرية. وعندما سألته عنها أنكر معرفته بمصيرها، بل وحذرني من السؤال والبحث عنها، إذ قال لي: إذا أتيت على ذكرها مرة أخرى سأتهمك بأنك سياسي معادٍ للدولة.

أما ما قاله البعض من أن والدي الشيخ عبد الكريم هو الذي وشى بها الى رجال الأمن، فأن الأخبار المروية في هذه الأوراق تكذب مثل هذا الإتهام، فضلاً عن انه كان مبتلياً برجال الأمن خوفاً على مصير أولاده فجر ذلك اليوم المشؤوم.

تحدث (جاسم الأعور) الى كاتب هذه السطور، بعد أكثر من عشرين عاماً. حيث بدا إنطفاء عينه السليمة مؤشراً على انه في طريقه لأن يصبح أعمى تماماً، فيما ساقه العرجاء قد أصبحت عبئاً على ساقه السليمة، فكان سيره – ونادراً ما كان ينتقل من مكانه الذي يجلس فيه يستجدي المارة - قد أصبح إبطأ من سير السلحفاة.

أخبرني (جاسم الأعور) عن (الملحه) ونحن تستذكر تلك الأيام، وخاصة ليلة عاشوراء، فقال بعد أن وضعت في يده الممدودة ديناراً واحداً:

- كنت ليلة التاسع على العاشر من محرم، أي في ليلة (الوحشة) مع جماعتي: (شرجي قامة) و(حميد الطويل) في (عكد الهوى) نغازل الفتيات اللائي منحت لهن حرية البقاء خارج البيت في مثل هذه الليلة من كل عام لمشاهدة مواكب اللطم والقامة في (عكد الهوى)التي تبدأ

انطلاقتها في الساعات الأولى من فجر العاشر من محرم.

كنا بين الحين والآخر ندخل أحد البيوت التي شرّعت أبوابها لاستقبال الناس طلباً (للثواب) وتوزيع (الهريسة) أو "التمن" واللحم بعد منتصف الليل، وقبل الفجر بساعات قليلة، قبل أن تبدأ مواكب اللطم والقامة، انقلبت السماء علينا...اسودت،(تدلهمت)، وأخذت الريح تضرب الوجوه بسياطها الثلجية اللاسعة... وبين غمضة عين والتفاتتها، ومثل السحر، أو قل كأن كلمة سحرية قيلت وقتها، فرغت الشوارع من كل شيء سوى الريح والمطر والبرد... لم نر أي شخص، حتى الرجال المسنين الذين كانوا يملؤون مجالس العزاء المنتشرة في المدينة، قد اختفوا فجأة، وفتحت السماء (تنانير) مياهها... عندها أسرعنا الى بيوتنا، وقبل أن نصل الى مسجد القرية، وكان الفجر يطرق أبواب الغيوم السود، إستأذنت أصحابي بحجة العودة الى دار الحاج "فريّح" للاطمئنان عليه، إلّا انني (غافلتهم) ودخلت الزقاق الذي فيه دار (الملحه)، وقبل أن أصل اليه، شاهدت من خلل الظلام والمطر، سيارة تتحرك بصعوبة من أمام بيت الشيخ عبد الكريم متجهة الى نهاية الشارع، دون أن تمر بالقرية وشارعها الرئيس والمسجد، أو أن تعبر الجسر الكونكريتي.

لم أكن أعبأ بها، وبمن فيها... كان كل همي في هذه اللحظة أن أصل الى (الملحه)، وان أفعلها هذه الليلة

معها... و(طز) – قالها أمامي وهو يبتسم عن أسنان أكلها التبغ وشرب الخمر – قلت مع نفسي وقتها: (طز) بالحاج، و(طز) بالملّه.

كان باب دار(الملحه) مرمياً على الأرض، وقد ملأته الأوحال ومياه الأمطار... دفعت باب (الصريفة) أنفتح أمامي بسهولة.

وجدت الظلام يملأ (الصريفة) وصوت الريح هو الوحيد الذي يسمع أنينه.. فيما قطرات الماء تنزل من السقف من أكثر من مكان...صرخت:

- الملحة.. يا الملحة ...

كان صوتي رغم صياحي بارداً، وقد ضاع مع الريح وقطرات الماء ووحل أرضية الصريفة و(إنداف) مع وحلها.

أشعلت عود ثقاب، إلّا انه انطفأ... أشعلت آخر، وقبل أن يطفأ رأيت الفانوس معلقاً في مكانه... أسرعت الى الباب وأحكمت اغلاقه... أشعلت فتيلة الفانوس... كانت (الصريفة) خالية، سوى بعض الأسمال التي بللتها مياه الامطار، وقد ديست هنا وهناك بأقدام موحلة.

لم أجد (الملحه)... ولم أرها حتى يومنا هذا.

سألت محدثي : أين ذهبت ؟

أجاب وهو يغمض عينيه (العوراء وشبه السليمة):

- لا أعرف... إلّا انني وبألحاح من الحاج الذي ظننت أول مرة انه كان كاذباً في الحاحه، أن أبحث عنها،

وكذلك لرغبتي الجامحة – في وقتها – في الزواج منها، رحت أبحث وأسأل عنها، متنقلاً بين الناصرية وبغداد وكركوك والموصل والبصرة، دون جدوى... سنة كاملة، حتى يإست من رؤيتها... عدت الى الحاج خالي الوفاض... عندها نسيّ الحاج (الملحه). أما أنا فقد زارتني أكثر من مرة في المنام حتى توسخت ملابسي الداخلية... إلّا أن السنين التي مضت لم تمح صورتها من أمام ناظري الذي أصبح لا يرى سوى الأشياء القريبة، أو عن أحلامي.

سألته: ألم تسمع بعض الأخبار عنها ؟

قال:

- أستاذ، الأخبار كثيرة، ولكن – مع الأسف – لم تفدني بشيء، إلّا انها كانت طيلة هذه السنوات هي الأمل الذي كنت أعيش من أجله.

قلت له:

- وماذا سمعت عنها؟

أجاب بعد أن أشعل سيجارة "جمهوري"، اخرجها من جيب (سترته) العلوي:

- أستاذ، بعد ثلاثة أيام من مطر كأنه الطوفان، وقد حل السبات في القرية وأهلها، وحيواناتها، وبعد أن أقفلت السماء (تنانيرها) وهدأت الريح، إلّا أن الغيوم السود ظلت تسود صفحة السماء، بدأت بالبحث عن (الملحه)، سألت كل أهل القرية، وأهل المدينة، فمن قائل انه شاهدها تلك الليلة برفقة رجلين من الشرطة.

وأكد آخر ان الشخصين كانا من رجال الأمن. فيما قال آخر انها شوهدت عند فجر يوم العاشر من محرم برفقة الحاج "فريّح". وأكد هذا القائل انه لم يتاكد جيداً فيما إذا كانت (الملحه) مع الحاج أم مع شخص آخر يشبهه.

إلّا ان ما هدَّ حيلي - تابع قوله - وقصم ظهري، هو ما أخبرني به الشخص الذي حاول مرة أن يغتصبها في فجوة كانت مفتوحة في (الروف) إلّا انها استطاعت الخلاص منه، وأخبرت بعد ذلك الحاج، فأرسلني أنا و(حميد الطويل) و(شرجي قامة) وأشبعناه ضرباً... قال هذا الشاب، وكان يعمل (عربنجي)، يدفع عربة خشبية، انه رآها مع اثنين من الشباب، يعتقد انهما من أقاربها، لأنهما كان يحيطان بها، ولم يتركا لها حرية الحركة. كان ذلك في فجر اليوم العاشر من محرم، والسماء تنزل غضبها على الأرض...أكد محدثي انهم(الشخصان والملحة) قد ركبا سيارة شوفرليت بلون أبيض موديل ٥٦، كانت تنتظرهما قرب الجسرالكونكريتي ، إلّا ان ظلمة الفجر وهطول الأمطار لم يسمحا له أن يقرأ لوحة رقم السيارة.

فضلاً عن ذلك، أكد زميل له من أصحاب العربات التي يجرها حصان واحد، انه رآى هذين الشخصين يذبحا(الملحه) دون أن يسمع لها صوتاً، ويضعا جسدها في (جنطة) السيارة، ويتحركا الى جهة مجهولة.

وفي بغداد، بعد بحث متعب عن منزل الخالة (نسيمة) أخبرتني من بين دموع كاذبة، انها سمعت من احدى

الفتيات اللائي كن يعملن في دارها، ان أهلها قد عثروا عليها في الموصل وجاؤا بها الى بغداد وذبحوها في دارهم.

وعندما سألت عن هذه الفتاة التي جاءت بخبر مقتل (الملحه) رأيت دموع (الخالة نسيمة) تسيل على خديْها، وخرجت كلماتها من بين نشيجها ، قالت: الله يرحمها قتلها أهلها قبل اسبوع كما سمعت. قتلها أخوها بعد أن عثر عليها في احدى الملاهي الليلية تؤدي أول رقصة لها بعد أن تركت منزلي وذهبت مع أحد عمال الملهى الذي كان يتردد عليها... الله يرحمها. كان رقصها أجمل من رقص المصريات في الأفلام، وكان لها صوتاً شجياً.

وقبل أن أترك (الخالة نسيمة) مع دموعها، وذكرياتها مع صبابياها المقتولات، سمعتها تقول: ابحث عنها في كركوك، ربما ستجدها هناك.

كنت وقتها أبحث عن أي بصيص أمل عن وجودها حية، لهذا لم أسألها أين وكيف ؟

وفي كركوك، التقيت بإحدى الفتيات... كنت وقتها قد ظننت انها هي (الملحه)، كانت تشبهها، (فص) مقسوم الى نصفين، إلّا أن ثلاثة أيام في كركوك متردداً على المنزل الذي تعمل فيه، جعلتني على ثقة تامة أن الفتاة التي أمامي ليست هي (الملحه) بعد أن سمعت منها حكايتها، وكيفية هروبها من أهلها ولقائها في بيت (الخالة نسيمة) بـ (الملحه)، ثم انقطعت أخبار (الملحه)

عنها بعد رحيلها من بيت (الخالة نسيمة)... إلّا أن احدى صديقاتها أخبرتها ان (الملحه) قد سجنت، أو انها قتلت، وسمعت انها قد ذبحها أخوها الصغير، وقطع أحد أصابعها ليريه الى من كان (يعّيرهم) بسلوكها الشائن، وهروبها ليلة زفافها، ثم أردفت قائلة:

- والله أعلم.

قلت لجاسم:

- وماذا تقول انت بعد هذه السنين ؟

اجابني بيأس: الله أعلم.

***

تقوّلات / ٢

هادي بن الشيخ عبد الكريم:

لم يكن هادي كـ (الملحه).. بل كان شخصاً معروفاً، ومن عائلة معروفة. فوالده هو الشيخ عبد الكريم، رجل معروف بتقواه وتدينه، يملك محلاً لبيع الكتب والقرطاسية. أما عمه الكبير فهو الشيخ عبد الجليل وهو فلاح معروف، وممن يؤدون الفرائض الدينية، ووالد المهندس كريم رئيس بلدية أحد أقضية المحافظة ومن المناضلين. وعمه الأصغر، كان من الشهداء الوطنيين، فيما أخيه مهدي الذي كان مطارداً من قبل رجال الأمن فهو طبيب، ونقيب الأطباء في المحافظة .

وأخته(هدية) فقد تزوجها ابن عمها كريم، لا لكونها ابنة عمه فحسب، بل لأنه اكتشف مصادفة أنها قد تشبعت بالأفكار التي كان يؤمن بها، وهي قعيدة الدار بعد أن حصلت على شهادة الدراسة المتوسطة، لأن والدها قال لها : لنكتفي بهذا المستوى من التعليم.

اذن، فإن البحث عن أخبار هادي، أحد الشبان الذين أوكل لهم تمثيل ما سمي بـ (التشابيه) لم يكن صعباً، بل

كان أمراً يسيراً. اذ التقيت بعد عشرين عاماً من ذلك الفجر المشؤوم بالدكتور مهدي، وتعرفت عليه... كان شاباً في الثامنة والثلاثين من عمره، وسيماً، سوى مسحة من الحزن قد لونت صفحة وجهه، فجعلته اكثر مهابة لمن يجالسه، و هو يختار جيداً الكلمات التي يريد التحدث بها.

عندما سألته عن أخيه هادي، إغرورقت عيناه بالدموع... وبصوت حزين قال:

- يرحمه الله، كان انساناً ومناضلاً.

أكدت له:

- نعم، كان انساناً ومناضلاً... لكن كيف مات ؟

تركني أشرب استكان الشاي الذي قدمه لي أحد العاملين في النقابة.

كانت غرفة الدكتور مهدي، نقيب الأطباء في المحافظة دافئة، بسيطة في آثاثها، لهذا تملكني إحساس بأن جلستي مع الدكتور لها مايميزها، خاصة واني أجالس انساناً مناضلاً، ونقيباً للأطباء، وجراحا اختصاصا.

قال لي، وهو يتابع ماقاله قبل لحظات:

- قتله الأمن قبل أن يستلم الوطنيون الحكم؟

قلت له :

- دكتور مهدي، أرجو أن لا تؤاخذني ان قلت لك انني جئت لأسأل عن سبب عدم وجوده هو والعائلة في

تلك الليلة السوداء الممطرة في داره، عندما داهمها رجال السلطة في فجر ذلك اليوم المشؤوم.

ابتسم الدكتور مهدي وكأنه قد عرف ماكنت أقصده، ثم نهض عن كرسيه واتجه الى أحد الخزانات الحديدية، أخرج من داخلها سجلاً ضخماً، وبيدين واثقتين راح يقلب صفحاته، فيما كانت حسرة طويلة سالت من بين شفتيه قد انطلقت من صدره.

كنت جالسا أتابع ما يفعله الدكتور، وبعد انتهائه من تقلب صفحات السجل، وقراءة بعض السطور، قدمه لي قائلاً:

- سيكون خير معين لك لمعرفة كل شيء عن المرحوم هادي... انها أوراق كتبتها بطلب من لجنة كتابة تاريخ الحركة الوطنية عن تلك الفترة.

أجبته بتلهف:

- بالتأكيد ستكون معلومات وافية ومفيدة.

بعد أن جلس قبالتي، تاركاً كرسيه خالياً خلف المنضدة الخشبية الكبيرة، قال:

- نعم... لقد أتعبتني كتابتها، رغم الحلاوة التي استشعرتها وأنا أدونها، إلّا أن مرارة ما في بعضها قد أنهكتني.

توقف عن الكلام... مد بصره الى نقطة ما أمامه، كان كمن يستذكر بعض ما غاب عن ذهنه من أفكار، ثم تابع قوله:

- كانت الصعوبة في كيفية عصر ذاكرة الوطنيين الآخرين للحصول على تلك الأخبار(الذكريات)... أما ذاكرتي – وإبتسم في وجهي – فهي والحمد لله قوية.

- دكتور اطمئن، سيعود هذا السجل اليك بعد يومين كما خرج من هذه الخزانة.

اتسعت ابتسامته، وقال:

- كأنك قرأت ما كنت أفكر فيه... أستاذ أنت تعرف ان الأسرار أمانات.

قلت له:

- ستكون في صندوق مقفل... ثم أكدت: كما قال الإمام علي الرجال صناديق مقفلة.

قال:

- ان شاء الله.

سألته قبل أن أنهى لقائي معه:

- دكتور، وأخبار سليم وجمال ؟

قال:

- ستقرأ القليل عنهما في هذا السجل، إذ كنت بعيداً عنهما في تلك الأيام، وهم أصدقاء لأخي أكثر منهم أصدقاء لي... ولكن، بالنسبة لـ (سليم) فقد سمعت انه قد مات في التعذيب، إذ التقيت مصادفة قبل أكثر من عامين بأخيه الأصغر في عيادتي، ان ما شدني اليه هو إسمه واسم أبيه وجده، وقتها تذكرته، وعندما سألته ان كان يعرف شخصاً بهذا الاسم. ابتسم وقال:

- دكتور، لقد تأكد لي جيداً انك أخ هادي، أليس كذلك ؟

وهكذا عرفت منه بعض المعلومات عن أخيه (سليم زاير كاظم)، والتي ستجدها في هذا السجل... أما بالنسبة لـ (جمال)، فبعد أن تم القاء القبض عليه في ذلك الفجر المشؤوم، ظل فترة ليست طويلة في التوقيف ثم أخرج بواسطة قريبه(عبد)، ولم نعرف عنه وعن عائلته شيئاً، أذ ارتحلت العائلة بعد أيام من القاء القبض عليه.

عندما خرجت من بناية النقابة، كانت الدنيا كلها لا تسع فرحتي بحصولي على هذا الكنز الثمين، لهذا أسرعت الى البيت، وفي غرفتي التي أحكمت اغلاق بابها، بدأت رحلتي مع هذا السجل الذي تنبض بين سطوره أرواح شباب، منهم الصالح، وهم الكثرة، ومنهم الطالح، وهم القلة.

***

تقوّلات /٣

السجل:

كان السجل الذي بين يديّ، والمكتوب بخط جميل، وهو خط الدكتور مهدي كما أكد لي، يضم بين دفتيه أكثر من مئتي صفحة من الحجم الكبير، وفيه من الأخبار الكثير، إلّا اني رحت أبحث عن مقصدي، أي عن أخبار الجماعة الذين كانوا مهيئين للمشاركة في (التشابيه)، وقد وجدت الكثير من ذلك، إضافة الى أن ما وجدته كان منطلقاً لي في البحث عن المزيد من الأخبار عند الأهل والأقارب وبعض أهالي القرية.

عندما سلمني الدكتور مهدي السجل قال لي: عندما تكون الورقة هي الوحيدة التي تنصت لقلمك وهو يسطر هذه السطور، فإن ذلك كافياً لتقول كل شيء بدون أي رقيب.

الصفحة:١١

أخبرني هادي في أحدى ليالي الصيف المقمرة، ونحن ننام في بيت العم في القرية، انه في لحظة من اللحظات التي يعتبرها خارجة عن مسيرة حياته، فكر

في أن ينام مع (الملحه) خاصة وانه قد أحس بميلها اليه... وعندما جمعتنا – كما يقول – (التشابيه) سوية في المسجد، تصاعدت حدة تلك الأحلام التي اعتبرتها بعد ذلك أحلام مراهقين ولا تمت لحياة المناضلين بصلة، فقررت، ليلة (الوحشة)، أي بعد انتهاء التمرين الأخير(للتشابيه) وخروجنا أنا وسليم وجمال من المسجد، قررت أن أزورها قبل خروجها من دارها فجر اليوم العاشر... ووضعت خطة للتسلل الى دارها... وقتها، أكدت لنفسي: إن يذهب الجميع الى الجحيم ... (وطز) بالحاج "فريّح"، (وطز) بجاسم والملّه، وكذلك الشيخ عبد الكريم.

ضحكنا سوية تلك الليلة وقلت له :

- كيف تقول (طز) لوالدك الشيخ ... هل جننت ؟

أجابني والضحكة مازالت تتردد في فضاء المضيف المظلم، فيماتدخل بعض أشعة القمر الفضي:

- كنت وقتها أشعر بإمتلاء، وبحالة من الشبق الحيواني لم أحس به طيلة حياتي. وقد(راهنت) جمالاً على إمتلاكها تلك الليلة، وأن أجعل جسدها يتلوى تحت جسدي، وليكن ما يكون.

الصفحة :١٨

في فجر اليوم العاشر من محرم، وكانت السماء ترسل مطرها مدراراً، غضباً، وبرداً، ورياحاً... توقفت سيارة (رانج روفر) خضراء أللّون، ذات سقف

أبيض، إنكليزية الصنع أمام دار عمي الشيخ عبد الجليل... ترجل منها مجموعة من أفراد الشرطة... كانوا مسرعين الى حيث المضيف.

كان عمي الشيخ قد أنهى صلاة الفجر... رحّب بهم، إلّا أن الضابط المسؤول عن المفرزة، بادره قائلاً:

- جئنا نسأل عن هادي ومهدي.

بلا مبالاة، كما أخبرني عمي بعد أن غادرت المفرزة القرية، رد قائلاً:

- إسمع إبني، البيت أمامك، ويمكن أن تفتشه اذا رغبت... لا مهدي ولا هادي هنا فقط زوجتي وابنتي، أما ابني (كريم) فقد ذهب يوم أمس الى بيت خاله في الأهوار.

لم يشأ الضابط آمر المفرزة إتعاب نفسه بالبحث في مثل هذا الجو الثلجي المظلم، خاصة وأن(كريم) لم يُعْرَف عنه انه كان منتمياً الى صفوف التنظيم، وإنما عُرف عنه من المهتمين بدروسهم للحصول على درجات تؤهلهم لدخول كلية الطب أو الهندسة.

لم أذهب الى أهلي كما إدعى الشيخ، بل انني وكريم بعد أن أخبر عمي أحد معارفه ممن يتعاونون مع رجال الأمن أن السلطة ستقوم بحملة اعتقالات لكل الشباب، ذهبنا الى دار قريب لنا في القرية المقابلة لقريتهم، وبتنا هناك.

بعد مغادرة سيارة المفرزة، وصلت عائلتنا الى بيت عمي، وكأنهم قد خرجوا تواً من النهر... أما سائق

السيارة، وهو أحد معارف والدي، فقد دخل المضيف مباشرة وهو(ينكث) ملابسه من ماء المطر الذي مازال يتصبب من سماء سوداء، والفجر مازال غائباً.

بعد أن علمنا بأمر المفرزة ومغادرتها بيت عمي، عدنا أنا وكريم الى دار عمي، وقد أخبرنا والدي إنهم شاهدوا السيارة أمام المضيف، فمالوا بسيارتهم عن الطريق، ودخلوا بستان الشيخ كعود، حتى تأكدوا من مغادرة سيارة المفرزة من أمام المضيف.

الصفحة:٤٥

في جلسة نادرة ضمتني أنا وهادي والاستاذ صبحي، إمتدت الذكريات بينهما لفترة طويلة... كانت تلك الجلسة في مقر الحزب الذي كان الأستاذ صبحي مسؤولاً عنه، فيما كنت أنا وهادي في بداية حياتنا العسكرية.

عندما أخبرني هادي انه سيزور مسؤوله السابق، رحبت بالفكرة، فكانت هذه الجلسة التي نحن فبها،والتي تحدث فيها الأستاذ صبحي قائلاً:

- عندما تركتكم بعد أن تفرقنا عن المكان الذي اجتمعنا فيه قرب (الروف) غادرت الى بيت خالي في الهور ولم أخرج إلّا بعد أن هدأت الأمور، وعندما بحثت عنكم قيل لي انك قد نقلت دراستك الى مدرسة في قضاء الرفاعي، وعندما حاولت زيارتكم في الرفاعي لتأمين الاتصال بك ومعرفة أخبار الشباب،

أخبرني مسؤولي أن أقطع علاقتي بك، لأنك انتقلت الى مسؤول آخر.

سأله هادي: ولماذا لم تخبرنا تلك الليلة بإجابة الحزب عن مشاركتنا في التشابيه ؟

ضحك الأستاذ صبحي طويلاً، وهو يستذكر تلك الأيام النضالية من حياته وحياة الحزب... وبعد أن أخذ قسطاً طويلاً من الضحك قال:

- وقتها كنت أخاف عليكم من القاء القبض، كان كل همي أن أحذّركم، وأعتبرت هذا التحذير هو إجابة الحزب لكم، ولكن الأجابه القاطعة قدمها رجال الأمن لكم... اليس كذلك ؟

ضحكنا الثلاث سوية.

الصفحة : ٥٧

عاش سليم ابن زاير كاظم البناء كزميل وصديق لأخي هادي لمدة سنتين، فقد كان زميله في الدراسة مع جمال، كذلك أحد سكان شارع واحد في القرية، إلّا أن ما كان يقلق هادي و جمال، هو عدم انتماء سليم الى صفوف الحزب، وكانوا يتمنون ذلك، وكثيراً ما فاتحوه، إلّا انه كان يرفض ذلك بحجج شتى، لكن السبب الأساس الذي كثيراً ما كان يلوم هادي نفسه عليه، هو أن سليماً كان منتميا الى صفوف حزب آخر، وظل هكذا بعيداً بافكاره عن أصدقائه، إلّا إن رصاصة من أحد رجال السلطة أصابته في ذلك الفجر بعد أن

حاول الهرب من داره التي طوقها رجال الأمن والشرطة معتبرين إياه من جماعة هادي وجمال.

لم يعرف هادي وجمال هذا التوجه السياسي لسليم، فقد كان من عائلة تضرب جذورها في المدينة منذ القدم وكان والده رجلاً متديناً، زار مرقد الامام الرضا في ايران، أما الحزب الآخر الذي إنتمى اليه، فإنه يتعارض بفكره ومبادئه. فضلاً عن أن سليم نفسه لم يصرّح لأصدقائه بهذا الانتماء، ومن هذه النقطة بدأ حوارنا أنا وهادي عندما سمعنا بمقتله، وكنا عند بيت عمي، بعد يومين من ذلك الفجر المشؤوم.

قلت لهادي : هل تظن أن سليماً قد خدعكما أنت وجمال؟

أخذت هادي حالة من الصمت، وكأنه كان يفكر عن اجابة عن سؤالي ، لهذا قلت له:

- كان عليكم أن تكشفوا توجهاته السياسية، أو على الاقل أن...

قاطعني هادي قائلاً:

- ليس هذا هو المهم. ان ما يشغلني الآن هو لماذا ظل سليم طيلة فترة صداقتنا يخفي سر إنتمائه ولم يفاتحني أو جمال للانضمام الى حزبه مثلاً، أو على الأقل، لم أسمع منه أية كلمة حول ذلك ؟

قلت له:

- ربما كان متورطاً.

- سألني مندهشاً:

- كيف ؟

تم أردف قائلاً:

- صحيح ان عمره يسمح للآخرين أن يورطوه في عمل ما، ولكن تربيته وأخلاقه لا تسمحان له أن ينتمي الى مثل ذلك التنظيم، وخاصة ان والده رجل متدين.

قلت له:

- ربما لم يعرف بذلك ؟

توقف حوارنا عند هذا الحد... ولم نستطع إضافة أي شيء، ذلك لأن سليم كما اتفقنا كان متورطاً، لهذا لم يصرّح بإنتمائه لأحد.

ظل هذا الحوار في الذاكرة حتى إذا التقينا بالأستاذ صبحي، في ذلك اللقاء الحميم، جرّنا الحديث الى سليم، وكنت أنا الذي سأل الأستاذ صبحي، إذ قلت:

- أستاذ صبحي، هناك شيء غامض بالنسبة لي ولهادي، أرجو أن نجد عندك ما يوضحه؟

قال:

- ما هو؟

قلت بعد أن التقت عيناي بعيني أخي هادي وكأنه كان يسألني عن ذلك الشيء:

- سليم... أقصد انتماء سليم لحزب غير حزبنا.

بعد لحظات صمت، خشيت أن أكون قد أزعجته بسؤالي، قال:

- لم يكن سليم كذلك، أقصد لم ينتم، إنما كانت الفتاة التي أقام معها علاقة حب، وهي من أهالي المدينة،

ومن عائلة منتمية لهذا الحزب، قد طلبت منه أن يكون مثلها وإلّا ستقطع علاقتها به، وقد عرّفته على أخيها، وكثيراً ماكانا يلتقيان صباح كل يوم جمعة في بيت هذه الفتاة، أي انه كان مشروعاً لأن يكون مثلهم، وعندما داهم رجال الأمن داره، كانوا يظنون انه من جماعتكم، لانه كان زميلاً لهادي وجمال.

سأل هادي مسؤوله السابق:

- لماذا لم تخبرنا بهذه المعلومات في ذلك الوقت ؟

أجاب قائلاً:

- ببساطه، لأنني لم أكن أعرف بكل هذه التفاصيل.

قال أخي:

- وكيف عرفت بها ؟

أجاب:

- قبل سنوات التقيت بوالد سليم (زاير كاظم)، في نقابة العمال، وكان يعمل حارساً فيها، وعندما عرفت انه والد سليم زميلكم، دار حوار طويل بيننا عن ذكريات تلك الأيام، فأخبرني انه يحتفظ بدفتر صغير كان يسجل فيه سليم بعض ذكرياته، ولما كان لا يعرف القراءة والكتابة، كذلك حفاظا على ذكرى ابنه وسرية تلك الذكريات لم (يتجاسر) في أن يدع أحد أخوته أن يطلع عليه، وسلمني إياه، لأنني – كما أكد لي - على ثقة ان ابني لم يكن منتمياً لأي حزب كان.

وكان (رحمه الله) يدوّن خواطره، فكان قلقاً وغير مستقر على رأي حول حسم موضوع هادي وجمال على حد قوله، أي – كما فهمت – انتمائه لحزبهم.

كان يبحث عن الحب وقد وجده في المكان الذي لم يفكر فيه أبدا، أو يتوقعه. و(خولة) وهو اسم حبيبته تريد منه أن يكون مثلها...ويؤكد في بعض أوراق خواطره قائلاً: ماذا أفعل، وهي أجمل الجميلات، هذا بالضبط ماكتبه في ذلك الدفتر.

قلت:

- يعني هذا ان دم سليم ذهب هدراً.

تابع أخي القول:

- نعم، قتل على أساس انه من جماعتنا، فيما(حبيبته) وجماعتها يعدونه واحداً منهم، ولم يكن هو واحداً من كلا الجانبين.

***

تقوّلات /٤

بعد عشرين عاماً من ذلك الفجر المشؤوم، رحت أبحث عن الحاج "فريّح"، فصدمتني وفاته.

كنت أريد أن أملأ بعض الفجوات التي تخللت ما كتبته عن أخبار الشباب، إلّا أن الموت قد أخذه ليظل هذا الحاج لغزاً بعد مماته، كما كان لغزاً في حياته، إذ لم يعرف عنه شيئاً سوى القلة من أهالي المدينة... أما ساكنوا القرية فلم يعرفوا عنه سوى اسمه الأول... وكان... كما حدثني والدي هو نفسه كان يرغب في أن يكون كذلك، ظاناً ان ذلك مدعاة لهيبة كان يفتقدها، ربما بسبب أصله غير المعروف، أو بسبب أعماله وسلوكه الشائنين.

لم يكن كشخص سوي في المدينة، لهذا راح يؤسس لنفسه حياة خاصة بين ساكني القرية الذين كانوا يعرفون أن الأرض التي كانوا يشترونها منه بثمن زهيد لم تكن أرضه وانما كان وكيلاً لعائلة كبيرة تمتلك هذه الأرض... أما (الملّه) الذي لم يكن اسمه الحقيقي

معروفاً في القرية، فإنه يدعى(ابراهيم جاسم) ومن أصل غير عربي، وقد استخدم الدين في تمرير سياسته وسياسة الحكومة كالأحزاب، إذ وقفوا في صف واحد، فحرقوا الدين وأنفسهم.

وعند البحث عن تفاصيل أخرى عنه، فقد أفادني ممن كانوا يعملون في أمن بغداد، ان مرؤوسيه كانوا يعرفون انه غير عربي، وبعد قيام الحكم الوطني هرب خارج العراق، وقيل انه كان شديد الخوف من وصول الوطنيين للحكم، لِما قام به من تعذيب شديد لهم، وبعد ذلك الفجر المشؤوم خاصة، إلّا انني لم أرتكن الى هذة النتيجه، خاصة وأن رجال الأمن أو الشرطه كانوا ينفذون الأوامر الصادرة لهم في أي زمان ومكان، وكذلك مهما كان الإسلوب الذي يتبعونه مع مسجونيهم، لهذا رحت أبحث وأسال، فتوصلت الى انه كان أحد أفراد شبكة جاسوسية عالمية. إلّا انه عندما علم بالأمر استطاع التخلص من حبل المشنقة بهروبه خارج العراق.

أما عن مغادرته القرية فجر ذلك اليوم، فقد أكد لي (جاسم الأعور) أن (الملّه) عندما التقى به في بغداد في ذلك اللقاء القصير، في فترة البحث عن (الملحه)، وبعد أن سأله عن سبب عدم وجوده في القرية بعد فجر ذلك اليوم، قال جاسم: انه ابتسم وقال: ان سيارة جاءت من بغداد وعادت به اليها.

وعندما سأله عن هادي وجمال أكد لي بغضب: لا أعرف شيئاً.

ويبقى(خبالو) الشخص الوحيد الذي أرقني وجوده في القرية ومغادرته في تلك الايام.

لم يكن(خبالو) سوى رجلاً في الأربعين من عمره، دخل القرية قبل فجر ذلك اليوم بأربعة أشهر، لم يعرف له أهلاً ولا نسباً... كان قبل أن يأتي الى القرية، نام في شوارع المدينة، وعلى (المسنايات) في الصيف ... عرفه أبناء المدينة كرجل مخبول، فراح البعض يتصدق عليه ببعض المال، والملابس المستعملة... قال عنه البعض انه هارب من (الشماعية)، وقال البعض انه غير عربي الأصل، لِما في كلامه غير الموزون من لكنة جعلت من الآخرين أن يظنون به الظنون، وكان بعضها صحيحاً... إلّا انه، وبعد أن وصل الى القرية، ولم يكن يعرف بوجودها بعد أن عاش شهرين في المدينة، دخل مسجدها، وراح يكنس أرضيته، وخلال دقائق تعارف (خبالو) على (الملّه) فأصبح عاملاً في المسجد.

لم أترك البحث والسؤال عنه، وكنت واثقاً من أن له علاقة بأحداث ذلك الفجر المشؤوم، فوجدت ضالتي في سجل الدكتور مهدي، اذ كتب في الصفحة المئه ما يلي:

الصفحة/ ١٠٠

كانت المفاجأة ثقيلة علينا أنا وهادي، كمن يسقط على رأسه سقف داره الكونكريتي. وقتها تساءلنا، هل حقيقة ما سمعناه؟هل هذا المجنون عميلاً؟

قال لي هادي:

- كنت أظنه جاسوساً للسلطة، فكنت أخشى الحديث أمامه، وقد نبهت زملائي منه، أما أن يكون عميلاً للمخابرات الصهيونية، فهذا ما لم أفكر به وقتذاك.

أكدت لأخي هادي قائلاً:

- صحيح أن هذه المعلومة مفاجأة لنا، لكن، اذا كان (الملّه) من أصل غير عربي، فهل (خبالو) – ولم نتوصل الى اسمه الحقيقي – هو الآخر من أصل غير عربي؟

ورحت أبحث عن ذلك، خاصة وانه قد أعدم قبل سنوات، إذ تبين انه قد اشترك في أكثر من مهمة استخبارية في العراق.

وعند البحث والسؤال عنه، تبين انه من عائلة غير عربية، نزحت الى العراق قبل أكثر من مئة عام، إلّا أنها ظلت محتفظة بولائها لقومها، وقد وَجَدَت فيه الأحزاب المعادية لكل ما هو عراقي ضالته المنشودة، كما وَجَدَت فيه دوائر المخابرات الصهيونية ضالتهما المنشودة.

عندما سألت الشخص الذي أفادني بهذه المعلومات، عما اذا كان قد جنّد معه بعض شباب القرية في ذلك الوقت، أجابني:

- لا أظن ذلك... ولكن كل ما نعرفه عنه أن الفترة التي قضاها في المدينة والقرية قصيرة، ربما لهذا السبب لم يحصل على ما كانت الجهة التي أرسلته تنتظر منه ذلك.

أما عن كيفية خروجه في ذلك الفجر المشؤوم، فإن (الملّه) أخبر (جاسم الأعور) انه قد أخرج معه (خبالو) إلى بغداد في السيارة نفسها التي أقلت (الملّه) الى بغداد، أي في سيارة الدولة.

مرة، جلسنا أنا وأخي هادي في إحدى إجازاته الدورية، وقبل استشهاده بشهرين... وعندما جرنا الحديث إلى ألأيام السابقة، كان أول ما زاحم ذكرياتنا عن تلك الأيام، هو هذا الحشد الهائل من العملاء والجواسيس الذين يعملون لجهات أجنبية عديدة.

قلت لهادي:

- كيف كانت السلطة في ذلك الوقت تسكت عنهم، فيما كانت تداهم الشباب الثوري المناضل، وتزج بهم في السجون؟

كان هادي – رغم انه يصغرني بسنتين – أكثر وعياً مني، خاصة بإمور السياسة، ذلك لأن فترة إبتعادي عن المدينة (في تلك الفترة)، قد جعلتني بعيداً عن الأحداث، لهذا كنت الجأ اليه بين فترة وآخرى، وكان لا يبخل عليّ بأية إجابة أو تحليل، لهذا، وعندما سألته عن ذلك، أجابني قائلاً:

- دكتور مهدي، ان الحكام في ذلك الوقت كانوا العوبة بيد الخارج... ولما كان هؤلاء العملاء والجواسيس هم صنيعة ذلك الأجنبي، فإن على الحكام أن يأخذوا جانب الصمت أمام أفعالهم.

سألته:

- اليس للنفط دور في هذا؟

أجاب مؤكداً:

- نعم... ان لشركات النفط الأجنبية الدور الكبير، وربما الحاسم في ذلك، لأن هذه الشركات لا تعطي للعراق سوى نسبة ضئيلة من الأرباح لا تسد الاحتياجات الأمنية والعسكرية، غير ما يسرقه السياسيون، فيبقى خادماً لمصالحها.

لقد كان حزبنا منغمساً الى أذنيه في واقع ما تقدمه حكومة ذاك الوقت... كان على الحزب أن يحاسب ذلك الواقع ولا يستكين لما يفرزه من أمور ونحن نمتصها ببرودة ولا أبالية. علينا كشف مساوئ ذلك الواقع، إلّا اننا ضيعناه وضعينا أنفسنا كذلك.

قلت بإرتياح:

- نعم.

سألت نفسي بعد أن خرجت: هل هو نقد للذات؟ أم ماذا؟

(إنتهت - ناصرية - ١٩٨٩ -٢٠١٩)

***((الدين كان فخاً نصبته الحكومة للأهالي.**
الدين كان فخاً نصبه الأهالي الى الحكومة.
فتاه الجميع، الدين والناس والحكومة.
وتبقى الصورة واحدة إلّا ان لها تأويلاتها الكثيرة كما في رواية(أوراق المجهول)
للمؤلف))

منظم ومرتب الأحداث

معجم ما استعجم :

- البارية: (ج: بواري) هي حصيرة منسوجة من القصب المرضوض.
- الجَريد: سعف النخيل بعد تجريده من أوراقه.
- الخُص: كل بناء بسيط وصغير يأوي اليه الناس من القصب والبواري.
- الصريفة:(ج:صرايف،صرائف) غرفة مبنية بالقصب والبواري، وهي مساكن الناس الفقراء، وكذلك أهل الهور، والقرى، والقصبات الريفية.
- الصاية: هي لباس خاص بالرجال يلبس فوق الملابس الداخلية، مفتوحة من الأمام طولياً،ويشد جانب على الآخر بخيط وحزام، أو زنار.
- الحوش: فضاء الدار.
- الدولاب: خزانة لحفظ الملابس أو لحفظ بعض الأشياء مصنوعة من الخشب أو الحديد.
- دشاديش: ج :دشداشه. وهي ثوب الرجل.
- الروف: سدة ترابية تكون على جانب/ أو على جانبي النهر، أو أي مجرى مائي، ويتكون من التراب المستخرج من الحفر لتقي المدينة من الفيضان.
- شطَيّط: تصغير شط ، ويطلق عادة على مجرى المياه الآسنة.

- المصطبة: وهي دكة مبنية من طابوق أو خشب أو حديد يجلس عليها الناس.
- أبو جداحة:منطقة غرب مدينة الناصرية فيها سدة ترابية تحيط بنهر الفرات لحماية المدينة من الفيضان، وهي غير قادرة على ذلك لضعف بنائها،وكثيراً ما جرت منها مياه الفيضان في سنوات سابقة، ومعناه: أبو قداحة، الذي يجري بسرعة كقدحة الزناد.
- تَخَر: خر بين يديه: سقط بين يديه . من خرَّ بمعنى سقط، أي تخلل (سقط) منه الماء. نضح منه الماء.
- الختّيلة: لعبة للأطفال بأختباء أحدهم والباقي يبحث عنه.
- تَنَك: وعاء مصنوع من التنك / التن tin وهو القصدير.
- سبرنكات: نوابض.
- الجوخ: (بالجيم المثلثة) نسيج سميك.
- يحف: يزيل الشعر من وجهه بالخيط.
- يافوخ: اليَأْفُوخُ: فجوة مُغَطَّاة بغشاء، تكون عند تلاقي عظام الجمجمة، وهما يأْفوخان: يأْفوخ أَماميّ ويأْفوخ خَلْفِيّ.
- زنبيل:وعاء مصنوع من خوص السعف على شكل نصف كرة، ويستخدم لحمل البضاع أثناء التسوق.
- التُربة: (الجمع:تُرب) قطعة مصنوعة من التراب المداف بالماء وقد جففت بالشمس، وهي من أرض كربلاء توضع عليها جبهة المصلي.

- مطي: حمار.
- الأوتجي: (بالجيم الثلاثية) الذي يكوي الملابس.
- التشابيه: مسرحية شعبية يقوم بها الأهالي تجسد فيها استشهاد الامام الحسين في معركة الطف في اليوم العاشر من شهر محرم.
- كِلِش:اللفظة منحوتة من "كل" و"شيء"، أي زيادة في الايمان.النطق في جنوب العراق يكون بكسر الحرفين الأوليين.
- كصّته: (كاف فارسية) جبهته.
- طاسة: وهي إناء يوضع فيه الماء ويشرب منها.
- الفافون: الألمنيوم.
- الشرْبة:اناء من الفخار لتبريد الماء وتسمى كذلك (تُنكه). المشربية بالمصري.
- الحداد خانة: مثل يضرب للجدل السفسطائي، لأن لا أحد يسمع أحد كما في سوق الحدادين.
- المقتل: وهو رواية مقتل الامام الحسين الذي دونها أبو مخنف يوم العاشر من محرم.
- الإستكانات: الجمع:إستكان. وهي كلمة روسية، قدح الشاي الصغير.
- عكد الهوى: تسمية قديمة لشارع الحبوبي في الناصرية.
- المستمسكات: وهي الأوراق الثبوتية لأي مواطن عراقي.

- باب الشطرة: وهي منطقة كانت تقف عندها السيارات التي تحمل الركاب والحمولة الى قضاء الشطرة الذي يبعد عن مدينة الناصرية ٤٠ كيلو متراً.
- القامة: وهي سكين كبيرة وعريضة تشبه السيف الروماني.
- الصفاة: وهي منطقة التسوّق، إذ يتصافى الناس عند البيع على سعر معين، وتطلق على منطقتين في الناصرية مركز محافظة ذي قار، الأولى السوق المبنية محلاته على شكل رباعي في منتصف المدينة. والثانية الصفاة التي تباع فيها الماشية خارج المدينة.
- الحَلال: الممتلكات من الماشية.
- باشِط: حاد، مسنون.
- الكشّافات: مفردها كشافه وكشاف، وهي (هو) التي تتنبأ بالحظ، أي انها فتاح فال، وتستخدم انواع من الخرز والحصو والمحار زتقوم بفرشها على الارض (تطشها).
- قلم القوبيا: وهو قلم خشبي يشبه قلم الرصاص وعندما يبَلّل في الماء فإن أثره يبقى ثابتاً على الورق، ويبلل عادة ببساق الفم.
- الندافين: مفردها نداف. وهو الذي يصنع الدواشك "(بالكاف الفارسية) "المرتبات"، والمخاد " الوسائد" من القطن.
- الحياصه: حزام الرجل المنسوج.

- شيله: ما تضعه المرأة على شعر رأسها، وهي قماش نسيجي أسود اللون محاك من خيوط الابريسم او القطن المصبوع باللون الأسود.
- ليلة الوحشة: ليلة التاسع على العاشر من شهر محرم.
- المسنايات: مفردها: مسناية. وهي جانب النهر الذي بنيت سلالمه (درجاته) بالطابوق ليهبط منه الناس الى النهر "الشط".

شكرا لمن أهداني عيوبي وأخطائي:عزيزي القاريء اللبيب هناك اخطاء وقعت سهواً في رواية "التشابيه"، وجل كتاباتي الادبية، والسبب هو ان دراستي الاكاديمية ذات توجه علمي وليس أدبي، أنا مهندس كهرباء، وكذلك، لا أدع كتاباتي ان يفحصها صاحب اختصاص لغة عربية لتجاوز الأخطاء كما يفعل الكثير من الأدباء، فأعتذر لذلك،منها:

الصفحة	الخطأ	الصحيح
٩	مداف	مدافاً
١٩	التثائب	التثاؤب
٢١	مبالات	مبالاة
٢٧	الصباح	الصبح
٢٩	غزى	غزا
٣٢	اصدقائه	اصدقاءه
٣٣	لانهاءه	لإنهائه
٤٤	الصباح	الفجر
٥٣	وركيا	وركان
٦٠	فظلكم	فضلكم
٦٣	عد	عاد
٧٢	لهم	لهما
٧٩	الشابين	الشابان
٨٥	تلا مولود	تلد مولود
٨٧	نحر جده ثور كبير	نحر جده ثورا كبيرا
	ولم يقول	ولم يقل
٨٨	بثور	ببقرة
٩٠	وعينية مزروعتان	وعيناه مزروعتان
٩٧	تلبست	تلبّست
١٠٠	وعينيه تحدقان	وعيناه تحدقان
١٠١	يسكن زميليهما	يسكن زميلاهما
١٠٣	يعطي درس	يعطي درسا

١٠٤	للحاضرين امور	للحاضرين امورا
١٠٦	الزملاء الاربع	الزملاء الاربعة
١٢٧	فكان	كان
١٢٨	جراح اختصاص	جراحا اختصاصيا
١٣٩	عيني	عيناي